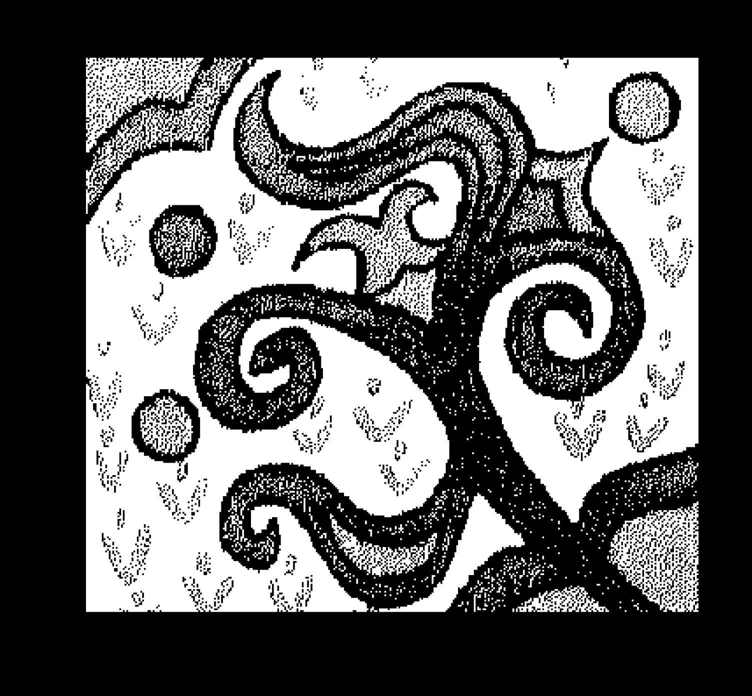


سيّد الخلق

الفتح المبين - حجّة الوداع

٥

دار الشروق

سيّد الخلق ﷺ

الفتح المبين - حجّة الوداع

الطبعة الأولى

١٤١٦هـ - ١٩٩٦م

© دار الشروق

أسسها محمد المعلم عام ١٩٦٨

القاهرة: ١٦ شارع جواد حسني ـ هاتف: ٣٩٣٤٥٧٨ ـ ٣٩٢٩٣٣٣

فاكس: ٣٩٣٤٨١٤ (٠٢) تلكس: 93091 SHROK UN

بيروت: ص.ب: ٨٠٦٤ ـ هاتف: ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٧٦٥ ـ ٨١٧٢١٣

فاكس: ٨٦٧٥٥٥ ـ تلكس: SHOROK 20175 LE

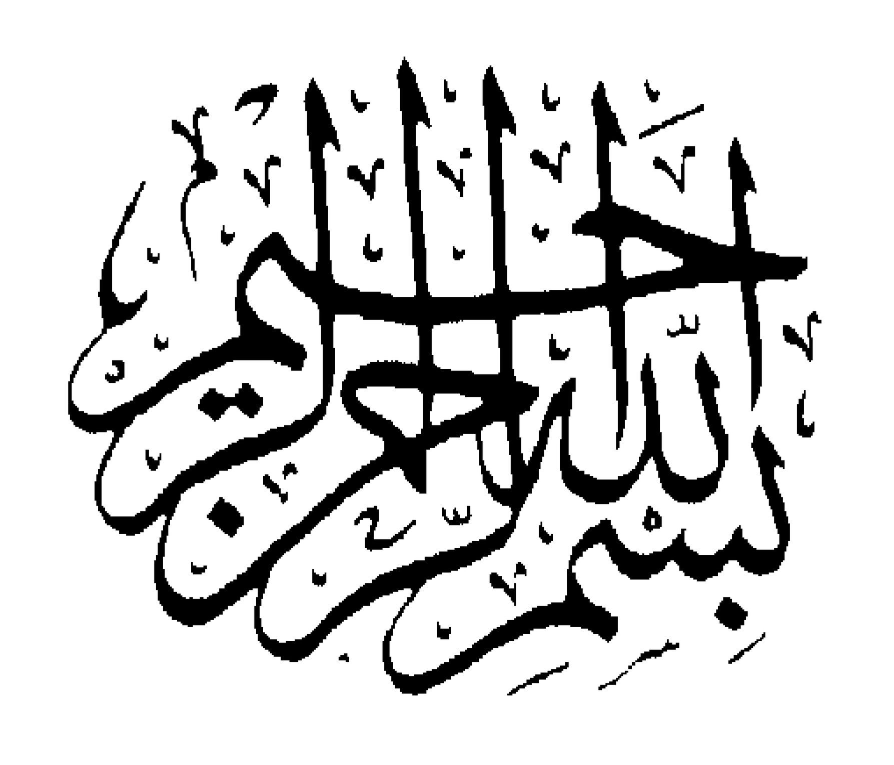


بقلم: كريمان حمزة ● رسوم: صلاح بيصار



الجزء الخامس

دار الشروق


بسم الله الرحمن الرحيم

عُمْرَةُ القَضَاءِ
فى
السَّنَةِ السَّابِعَةِ هِجْرِيّاً



عِندمَا أَهَلَّ شهرُ ذِى القِعْدةِ من السنةِ السابعةِ هجريًا . . اسْتعدَّ رسولُ اللهِ لِعُمْرةِ القضاءِ [1] وهىَ العُمْرةُ التِى اعترفتْ لهُ بها قُرَيشٌ فى صُلْحِ الحُدَيبيةِ وخرجَ رسولُ اللهِ ومعهُ أَلْفَانِ مِن المُعْتَمِرينَ غيرَ النساءِ وَالصِّبْيَانِ . . وَاستخلفَ أبا ذَرٍ الْغِفَارىّ بِالناسِ فى المدِينة وَسَاقَ الْهَدْىَ سِتينَ بَدَنَةٍ ثم راحَ يُلَبِّى والمُسْلِمُونَ مِن خَلْفه يُردِّدُونَ .

وكمَا قَالَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ : « المسلمُ كَيِّسٌ فَطِنٌ »[2] .

فقد استعدَّ لأىّ غدرٍ فحملَ مَعَهُ السلاحَ والخُوْذَاتِ والدُّرُوعَ والرماحَ وقادَ معهُ مائةَ فارسٍ . . وعندمَا أرسلتْ قريشٌ عُيُونَها وعلِمتْ بهذا السلاحِ أرسلتْ إلى رسولِ اللهِ تقولُ لهُ :

---

(١) كان عليه عمرة لأنه أحرم فى العام السابق ولم تمكنه قريش من العمرة فتحلل وكانوا قد اتفقوا فى صلح الحديبية على العمرة فى العام الذى يليه .

(٢) كيس من الكياسة فطن . . من الذكاء وعدم الغفلة والذهول .

يامحمدُ ما عُرِفَ عنكَ صغيرًا ولا كبيرًا الغَدرُ . ولقد شَرَطْتَ فى صُلْحِ الحُديبية ألَّا تدخلَ إلا بسلاحِ المُسَافِرِ والسيوفُ فى القِرَبِ .

فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلمَ : « إنى لا أُدْخِلُ عليهمُ السلاحَ » .

فقالَ رسولُ قُرَيْشٍ : هذا الذى تُعْرَفُ به مِنَ البِرِّ وَالوفاءِ .

ثم عادَ إلى مَكَّةَ وطمأَنَهُم .

* * *

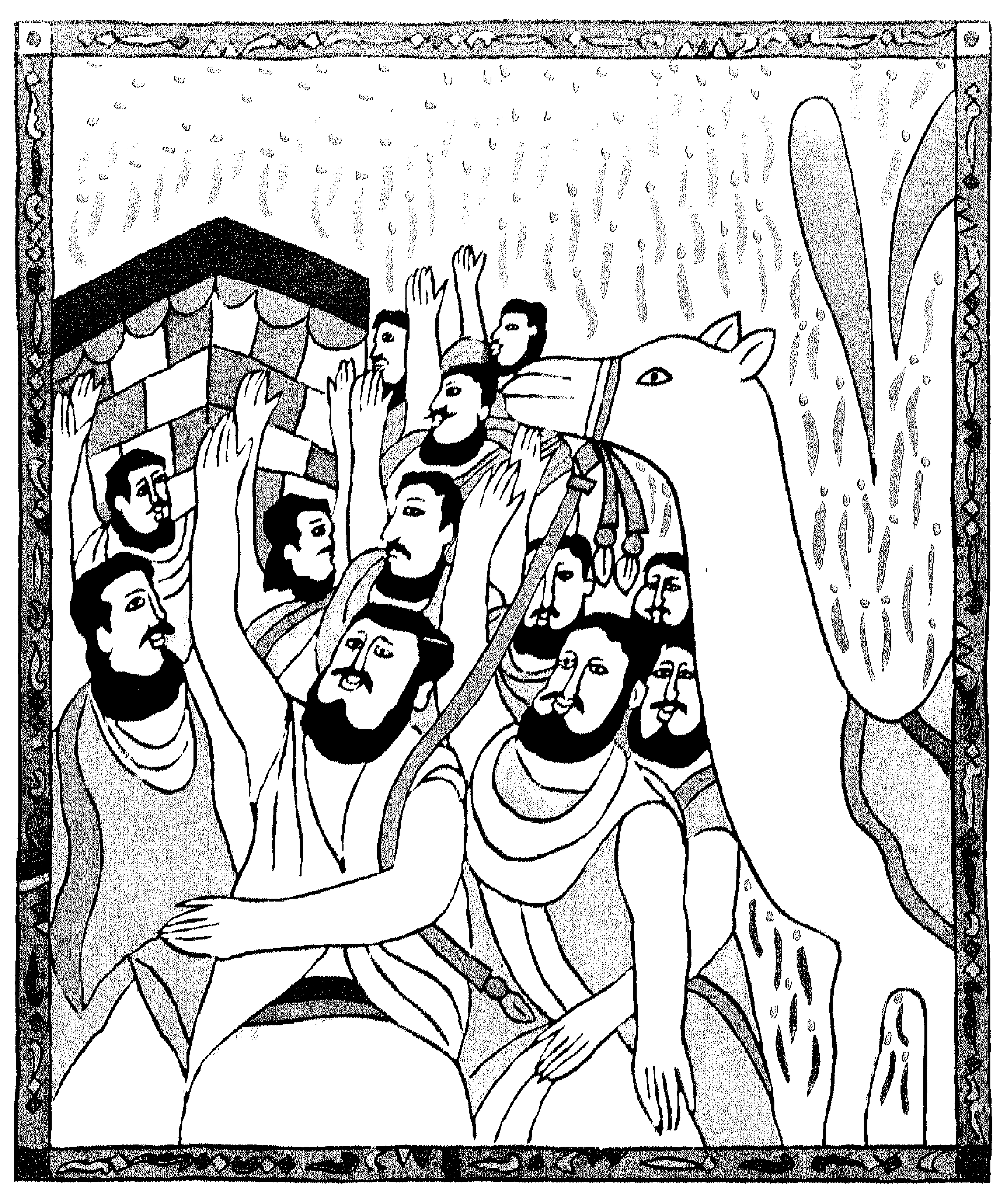
أمرَ زعماءُ قريشٍ الجماهيرَ الكبيرة بأن تخرُجَ إلى رؤوسِ الجبالِ حتى لايشَاهدُوا محمدًا وَمَنْ معهُ مِن المسلمِينَ . . خوفًا مِن أن يتعَاطفُوا معهُم . . وحَسَدًا وغيْظًا من رسولِ اللهِ .

ورغمَ ذلكَ فقد كانَ فُضُولُ العَوَامِ شديدًا فراحُوا يُتابعونَ تحرُّكَاتِ المسلمينَ .

فأشَاعَ زُعَماءُ قُرَيْشٍ أن محمدًا وصحْبَهُ قد أنهكتْهُمُ الحروبُ وأضْعَفَتْهُمُ الحُمَّى المنتشرةُ بالمدينةِ ، ولكنهم فُوجئوا بمنظرِ أثارَ الإعجابَ فلقد دخلَ النبىُّ مَكَّةَ فى مَوْكبٍ مُنَظَّمٍ وَخُشوعٍ واطمِئنانٍ وثقةٍ فى النفس ، وكان رسولُ اللهِ قد أمرهُم أن يَطُوفُوا الأَشواطَ الثلاثةَ الأولى مُهَرْوِلينَ فى قوةٍ ورشاقةٍ ويكشفُوا عن مَنَاْكِبِهِم [1] ليرى المُشْرِكونَ قُوَّتَهم . . وراحَ المسلمُونَ يُلبُّونَ « لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ » وعبدُ اللهِ بنُ رَوَاْحَةَ آخِذٌ بزمامِ ناقةِ رسولِ اللهِ وهوَ

---

(١) أكتافهم .



وراح المسلمون يلبون « لبيك اللهم لبيك »

يَرْتَجِزُ (١) فقالَ له صلَّى اللهُ عليهِ وسلمَ : يابنَ رَوَاحَةَ قُلْ لا إلهَ إلاَّ اللهُ وَحْدَهُ . . صدقَ وعدَهُ . . ونصرَ عَبدهُ . . وأعزَّ جندهُ . . وهزمَ الأحزابَ وحدَهُ .

وكان رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ يُرَدِّدُ « رَحِمَ اللهُ امْرأً أَرَاهُمْ فِى نَفْسِهِ قُوَّةً » حتى تشتدَ التَّلبيَةُ والأدعِيَةُ والخَطْوُ المنَظَّمُ . . حتى أن أحدَ المُشركينَ قالَ محسُوراً : أَهَؤلاءِ الذينَ زعَمْتَمْ أن الحُمَّى قد أضعَفَتْهُمْ » ؟ !

إنهمْ يَمْشُونَ فى نشاطِ الغِزلاَنِ ! !

وطافَ رسولُ اللهِ سَبْعًا ثم سِعَى على راحِلَتِه سَبْعَاً . . فَلَمَّا انتهَى السَّعْىُ عندَ المَرْوَةِ قالَ : هَذا المَنْحَرُ . . وكلُّ فِجَاجِ مَكَّةَ مَنْحَرٌ ﴾ (٢) .



وعندمَا جاءَ الظُّهْرُ أمَر رسولُ اللهِ بِلاَلاً فأذَّنَ فوقَ الكعبةِ ، وكانَ هذا أولَ أذانٍ فى الكعبةِ المُشَرَّفةِ فاغتَاظَ المشركونَ حتَّى أَن بعضَهم بلغَ بهِ الحَنَقُ (٣) أَنْ سَدَّ أُذُنَيْهِ حتى لايسمعَ وَأغمضَ عينيه حتَّى لايرى عبدًا حبشيًّا يَصْعَدُ فوقَ الكَعْبَةِ وَيُؤَذِّنُ ! !

وظَلَّ صلى اللهُ عليهِ وسلمِ فِى مَكَّة ثلاثةَ أيامٍ كما كانَ الشَّرْطُ وفى هذهِ الأَثناءِ رأى زعماءُ قريشِ الأثرَ العمِيقَ الذى تركَهُ المسلمونَ

---

(١) يقول شعرا   (٣) الغيظ الشديد .

(٢) المنحر: المكان الذى يذبح فيه الهدى .



وعندما جاء الظهر أمر رسول الله بلالاً فأذن فوق الكعبة

فى النفـوسِ ، فقـد رأَوا حِـرْصَ المسلمينَ على النظـافَـةِ والتَّطَهُّـرِ وحُبَّهُم لنبيِّهِم والتِفَافَهِم حولَـهُ وإطاعتَهُمْ لأمرِهِ ، وكيفَ يُنَظِّمونَ الصُّفُوفَ فى الصلاةِ وكيفَ يَركعـونَ مَعًا ويسجدونَ معًا فِى خُشوعٍ للهِ وسُكُونٍ يَبْعَـثُ على الرَّاحةِ . . وبـدَءُوا يستثيغونَ صـوتَ بِلاَلٍ وهـوَ يـؤَذِّنُ لِلصـلاةِ . . ورأوا حسـنَ التعـامـلِ فى البيـعِ وَالشِّرَاءِ والصدقَ فى القولِ . . فخـافَ زعماءُ قريشٍ من أَنْ يَفْتِتِنَهُـمْ محمدٌ وصَحْبُهُ فذهبوا إليهِ وقَالُوا لهُ :

ـ لقد انقضَى أجَلُكَ فاخرُجْ عنا .

فحاولَ رسولُ اللهِ مُدَاعَبَتَهُمْ فقالْ لَهُمْ :

« وما عَلَيكُم لو تَرَكتُمُونى فَأَعْرَسْتُ [1] بينَ أَظْهُرِكُم ، وَصَنَعْنَا لكم طعـاما فَحَضَرتُمُوهُ » ولكـنَّ القومَ خشَوْا مـن أثرِ الـرسولِ على النُّفُوْسِ فقالوا :ـ لا حاجةَ لنا فى طعامِكَ . . اخْرُجْ عَنَّا .

فَاغتَاظَ سعدُ بنُ عُبَادةَ من هذا الردِّ . . وقال للرجلِ :

كَذَبْتَ ، لا أُمَّ لَكْ ! ليست بأرضِكَ ولا بأَرْضِ أَبِيكَ .

فتبسَّمَ رسولُ اللهِ وقالَ :

« ياسَعْدُ ، لاتؤذِ قومًا زَارونا فى رِحَالِنَاْ » .

وأمر رسولُ اللهِ المسلمينَ بالرَّحيلِ عن مَكَّةَ .

---

(١) أى أقمت حفل عرس أى (زواج) فقد خطب رسول الله ميمونة بنت الحارث وكانت من كرائم نساء قريش .



فاغتاظ سعد بن عبادة من هذا الرد وقال للرجل :كذبت ، لاأم لك ليست بأرضك ولاأرض أبيك

إسلامُ خالدِ بنِ الوَلِيدِ وَعَمرو بنِ العَاْص :

لم يفرحْ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ بإسلامِ رَجُلَيْنِ بعدَ الهِجْرةِ كما فَرِحَ بخالْدِ بنِ الوَلِيْدِ وَعَمْرِو بنِ العَاصِ . . فلقد أَسلَمَا بعدَ عُمْرَةِ القَضَاءِ بعدَ مراحِلَ من العَدَاءِ والكَيدِ للإسلاَمِ . . وعندمَا عَلِمَ رسولُ اللهِ بأنَّهُما قادِمَانِ إلى المدِينَةِ لإعلانِ إسلامِهِمَا . . قالَ لأصحابِهِ « لَقَدْ رَمَتْكُمْ مَكَّةُ بِأَفْلاَذِ أَكبَادِهَا[1] » .

كانَ عَمرو بنُ العَاْصِ من أكثرِ العربِ دَهَاءً فى السياسةِ وحُسْنِ التَّأَنِّى فى النَّظرِ إلى الأُمور . . وكانَ خالدٌ من أشجَعِ فُرسانِ القتالِ ومن أَفهَمِهِم لِفُنونِ الحربِ وكانَ من قادةِ الفُرسَاْن فى الجاهلية . . فَلَمَّا دخلا فى الإسلامِ هَزَّ ذلكَ القُرَشيّينَ . . وزرع الخوفَ والقلقَ فى صفُوفِهمْ بينما شَدَّ من عزمِ المسلمينَ وقَوَّى من رُوحِهم المعْنويَّةِ .



وعندمَا وقفَ خالدُ بنُ الوَلِيْدِ أمامَ رسولِ اللهِ قالَ : أَشْهَدُ أَنْ لا إلَهَ إلا اللهُ وأنَّكَ رسُولُ اللهِ . . قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ :

« الحمدُ لِلَّهِ الذى هَدَاْكَ . قد كُنْتُ أرى لَكَ عَقْلا رَجَوْتُ أَلاَّ يُسْلمُكَ إلاَّ إلى خَيْرٍ » . . قال : يارسولَ اللهِ . . ادْعُ اللهَ أن يغفرَ لى تلكَ المواقفَ التى كنتُ أشْهَدُهَا عَلَيكَ . قالَ رسولُ الله :

« الإِسْلاْمُ يَجُبُّ مَاْ قَبْلَهُ » .

---

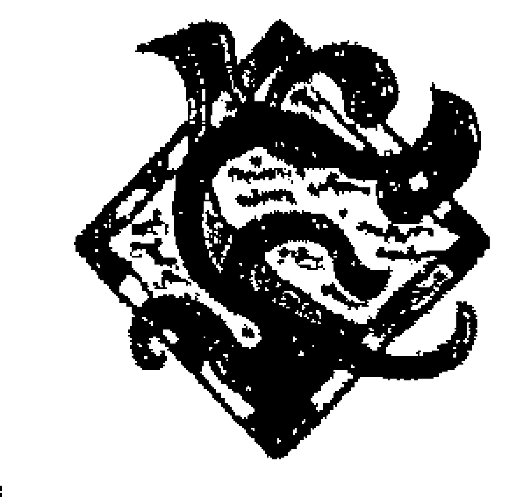
(١) بخير أبنائها.



إسلام خالد بن الوليد

سـرِيَّةُ مُؤْتَــة

يُطلقُـونَ عَلَيهَا فِي التَـارِيخ غَـزوَة وإن كَانَ الـرسولُ لمْ يحضرهَـا ولكِن لِعظَمِهَـا ولأنَ المسلمِينَ فيهَا واجهُوا الـرُومَان . كـان ولايزالُ العُـرْفُ السياسـيُّ بينَ الدولِ أَنْ يُكْـرَمَ مبعوثـو الملوكِ والـزُّعَماءِ ، فالرَّسـولُ ليسَ إلا مُبَلِّغًا عَمَّنْ أَرْسلهُ ، فليسَ لأحَـدٍ أَن يُسِيءَ إليهِ مَهْمَا تَضَمَّنَتِ الرِّسَالَةُ التى يَحْمِلُها .



غَيْرَ أَنَّ شَرحبيـلَ بنَ عَمْـرو الغَسَّانِـيّ ــ أحدَ عُمَّالِ الـرُّوم على الشام عندمَا لَقِيَ الحَارِثَ بنَ عُمَيْرٍ ـ رسولَ النَّبيّ إلى أميرِ بُصْرَى ـ سـألهُ عَـنْ وِجْهَتِهِ فلمَّا عـرفَ أَنَّـهُ مِنْ رُسُـلِ محمـدٍ أمَر بِـه فأوْثـقَ رباطًا[1] ثُمَّ قَدَّمَهُ فَضَرَبَ عُنُقَهُ ! !

ساءَ ذلـكَ رسولُ اللهِ وشعـرَ بِمُنْتَهَى الخِيَـانةِ والشُّـذُوذِ الجَافِ وَكانَ صلى اللهُ عليـهِ وسلَّمَ حَرِيصًـا على ألا تُنْتقَصَ هَيْبَـةُ الإسلامِ الذى مَـلأَ قُلُوبَ العربِ والعُجْمِ [2] . . وكان السكُوتُ على قَتْلِ الحَاْرِثِ بـنِ عُمَيْرٍ أمـرًا يَحُطُّ مِـنْ كـرامـةِ الإسـلامِ وَيَنْتَقِـصُ مِـنْ

---

(١) ربطوه بالحبال .

(٢) غير العرب .



وخرج الجيش فى جمادى الأولى من السنة الثامنة للهجرة

هَيْبَتِهِ . . وصمَّمَ صلى اللهُ عليهِ وسلَّمَ على قتالِ شَرحْبِيْل فجمعَ حَوَالَى ثلاثَةَ آلافِ مُقاتِلٍ وقال لَهُمْ :

« أميرُ القَومِ زَيْدُ بنُ حَارِثَةَ ، فإنْ قُتِلَ فَجَعْفَرُ بنُ أَبِى طَالِبٍ ، فإنْ قُتِلَ فَعَبْدُ اللهِ بنُ رَوَاْحَةَ ، فإنْ قُتِلَ فَلْيَرْتِضِ المسلمونَ بينهُم رَجُلاً فَيَجْعَلُوهُ عليهِم » .

« وأَمَرهُم رسولُ اللهُ أَنْ يَطْلُبوا من القومِ فِى البدايةِ أن يُؤمنُوا باللهِ وَحْدَهُ لاشريكَ لهَ ، وبأَنَّ محمدًا عبدُهُ ورسولُهُ فإنْ أَجَاْبُوا فَخَيْرٌ وَبَرَكَةٌ ، وإنْ لَمْ يَستَجِيبُوا فَليَستَعِينُوا باللهِ وَيُقَاْتِلُوهم . . وأوصَاهُم أَلَّا يَغْدُرُوا ، ولايَقْتُلُوا ولِيْدًا ولا امْرَأَةً ، ولا كَبِيرًا فَاْنِيًا ، ولا مُنْعَزِلاً بِصَوْمَعَتِهِ [1] ولايَقْرَبُوا نَخْلاً ، ولا يَقْطَعُوْا شجرًا ، ولا يَهْدِمُوا بِنَاءً» .



وخرجَ الجَيْشُ فى جُمَاْدَى الأُولىَ مِن السنةِ الثامنةِ لِلهِجَرةِ (سبتمبر ٦٢٩ م) بعدَ عُمْرَةِ القَضَاءِ بنحْو خمسةِ أَشْهُرٍ ، وخرجَ مَعَهُمْ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلمَ حتَّى بلغَ ثَنِيَّةِ الوَدَاعِ فَودعهُم ثُمَّ عَادَ إلى المدينة .

وكانت الخُطَّةُ التى سارَ على أساسِهَا الجيشُ أن يُفَاجِىءَ القَومَ ويأخُذَهُم على غِرَّةٍ . . ولكنَّ القومَ وصلَهُم نَبأُ تَحَرُّكِ المسلمينَ

---

(١) مكان للعبادة .

. . فَرَاحُوا يستعِدُّونَ لَـهُ استِعدَاداً بَالِغَ القُوَّة وقد عَلِمُوا بقُوَّة المسلمينَ فَلَمَّا دَنَا المشركُونَ من المسلمينَ رأوا مالا قِبَلَ لأحَدٍ بِه مِنَ الرجالِ والسلاحِ والحريرِ وَالدِّيبَاج . . وكانَ عددُ المسلمينَ ثلاثَةَ آلافِ مُقاتِلٍ وَعَدَدُ المُشركينَ مائتَىْ أَلفِ مُقاتِلٍ من الرُّومِ ومَائَةَ أَلفٍ مِن نَصارىَ العربِ التَّابعينَ لهم .

فلمَّا عَلِمَ المسلمونَ بهذا راحُوا يتشاوَرُونَ ثُمَّ بَدَا لهم أن يَكتبُوا إلى رسولِ اللهِ ليُمِدَّهُم بِالرجالِ أو يأمُرَهُمْ فيعُودُوا إلى المدينةِ . . ولكِنَّ عبدَ اللهِ بنَ رَوَاحَةَ غَلَبَتْ عليهِ حَمِيَّةُ الإيمان فقامَ يُشجِّعُ المسلمينَ ويقولُ لهم :

« ياقومُ ، إِنَّ التى تكرهُونَهَا لَهِيَ الشهادَةُ التى خَرجتم تَطلُبونَهَا ، واللهِ ما كُنا نُقاتلُ النَاسَ بكَثرَةِ عَدَدٍ ولا بكَثرَةِ سلاحٍ ولا بكَثرَةِ خُيولٍ ، ما نُقاتِلُهم إلا بهذا الدِّينِ الذى أكرَمَنَا اللهُ بهِ . . انْطَلِقُوا فَوَاللهِ لقد رأيْتُنَا يومَ بَدْرٍ ما معنا إلا فَرَسَانِ ، ويومَ أُحُدٍ ما معنا إلا فَرَسٌ وَاحِدٌ . . انطَلِقُوا فإنَّما هى إِحدى الحُسْنيَيْنِ . . إمَّا ظُهُورٌ عليهِمْ ، فَذلكَ ما وَعَدَنَا اللهُ ورسولهُ وليس لوَعْدِ اللهِ خُلْفٌ ، وإمَّا شَهَادهٌ ، فَنَلحقُ بالإخوانِ ونرافقُهُم فى الجنةِ . ورَدَّدَ المسلمونَ . . حَقًّا . . حَقًّا إننا لَمْ نُنْصَرْ فى بَدْرٍ بالكَثرةِ . . وسارَ المسلمونَ للقاءِ العدوِّ حتى وجدوا جُموعًا مُحتَشدةً عندَ قريةٍ يُقَالُ لها « مَشَارِفُ » وأخذتْ فَيَالِقُ العدوِّ تَدْنُو منهُم فانْحَازَ المسلمونَ إلى





فانحدر إليهم الروم كالسيل المتدفق



فضربت يمينه فقطعت فأخذ اللواء بيساره

قَرْيَةِ « مُؤْتَةَ » ليتحَصَّنوا بها . . فانحدَر إليهُم الرُّوْمُ كالسَّيْلِ المتدفِّقِ وأقبَلُوا عليهِم بِخَيْلِهم ورِكَابِهم ومَظَاهِرِ الأُبَّهَةِ والغِنَى والْقُوَّةِ مِمَّا أذهلَ المسلمينَ .

قَسَّمَ المسلمونَ أنفسَهُمْ إلى مَيْمَنَةٍ وَمَيْسَرَةٍ لِتَحُوْلَ دُونَ التِفَافِ العَدوِّ بِهم والتَّحَمَ الجيشانِ وَحَمِيَ القتالُ .

وقاتَلَ زَيدُ بنُ حَارِثَةَ بِرَايَةِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلمَ وقاتَلَ معهُ المسلمونَ حتى تفَجَّرَ وَجْهُهُ وَتَمَزَّقَتْ أَوْصَالُهُ بِرِماحِ القوم . . فلمَّا قُتِلَ زَيْدُ أخذَ الرَّايَةَ « جَعْفَرُ بنُ أَبِى طَالِبٍ » . . فَرَاحَ يُقَاتِلُ بها مُسْتَمِيتًا حتى ازْدَحَمَ عليهِ الأَعْدَاءُ وأَجْهَدُوْهُ فَنزَلَ من على فَرسِهِ ثم انْدَفَعَ يُقَاتِلُ القَوْمَ رَاجِلاً [1] واللّوَاءُ بيَمِينِه فَضُرِبَتْ يَمينُه فقُطِعَتْ فأخذَ اللّوَاءَ بِيَسَارِهِ ، فَضُرِبَتْ يَسَارُهُ فَقُطِعَتْ ، فَاحْتَضَنَ اللِّوَاءَ بِعَضُدَيْهِ [2] حتَّى قُتِلَ ، فَوُجِدَ به نَحْوُ تِسعينَ طعنةٍ ، فلمَّا قُتِلَ جَعفَرُ أخذَ اللّواءَ « عبدُ اللهِ بنُ رَوَاْحَة » . . وكانتْ هذه المعركةُ أَعنفَ معركةٍ قَاتَلَ فيها المسلمونَ حتى نَسُوا أنفسَهُم وَشُغِلُوا عن الطعامِ والشَّرابِ حتى أَنَّ عبدَ اللهِ بنَ رَوَاْحَةَ لَمَّا نزلَ من على فَرسِهِ أَتَاهُ ابْنُ عم لَهُ بقطعةِ لحمٍ وقالَ لهُ : شُدَّ بِهَذَا صُلْبَكَ ، فأخذهُ من يَدِهِ فَقَضَمَ مِنْهُ قَضْمَةً ثم سَمِعَ

---

(١) على رجليه فى الأرض .

(٢) كتفيـه .

صوتَ القتالِ فـألقَى باللَّحمِ من يَـدِهِ وأخذَ سيفَهُ ثم تقـدَّمَ فقاتَلَ حتى قُتِلَ .

واتَّفقَ المسلمونَ على تَوْلِيَةِ خالدِ بنِ الـوَلِيدِ الرَّايةَ بعدَ مَقْتَلِ بنِ رَوَاْحَـةَ فلمَّا أخذَ الـرَّايةَ دَاْوَرَ العَـدوَّ وحاوَرَهُ حتـى أتى المسـاءُ . . فَانْتَحَى جَانِباً وَانْتَحَى عنهُ المُشرِكونَ .

ولمَّا جَنَّ اللَّيـلُ فَكَّرَ خـالدُ بنُ الـوليدِ فى خُدْعَـةٍ فبَدَّلَ مَـوَاْقِفَ الجَيْـشِ فنَقَلَ المَيْمَنَـةَ إلى المَيْسَرَةِ وَنَقَـلَ المَيْسَرةَ إلى المَيْمَنَةِ ، وجعـلَ السَّاقَةَ فى مَـوضِعِ وجعلَ المُقَدِّمَـةَ فى مَوْضِعِ السَّاْقَـةِ ، ورصدَ من خَلْفِ الجيشِ طـائفةً يُثِيرُونَ الغُبَارَ ، ويُحْدِثُونَ أصْـواتًا كثيرةً وكأنَّما جاءَهُم المَدَدُ من رسولِ اللهِ . . فلمَّا التَقَـى الفريقَانِ فى الصَّبَاحِ ، رأى كُلُّ فـريقٍ من العـدوِّ أمامَهُ وُجُوهًـا غَيْرَ التى رَآهَا بـالأمسِ ، وَرايَاتٍ غَيْرَ التِـى رَآهَا ، فَظَنُّوْا أَنَّ المسلمينَ قد جَـاءَ إليهِمُ المَدَدُ ، فخَافُوا من لقاءِ المسلمينَ وكانَ القتالُ قد أَجْهَدَهُمْ .



ونجحتْ حِيْلَةُ خـالدِ بنِ الوليدِ فى خداعِ القـومِ وصدقَ رسولُ اللهِ حينَ قالَ : « الحَرْبُ خُدْعَـةٌ » . . وأخذَ خالدٌ يَتَراجَـعُ بِمَهارَةٍ فائِقَةٍ . . فظنَّ الرُّومُ أنهُ يريدُ أن يَسْتَدْ رِجَهُمْ إلى الصحراءِ لِيَنْقَضَّ عليهِم فلـمْ يَتْبَعُوهُ . . وظلَّ خالـدٌ يُنَاوِشُ العدوَّ تَـارَةً وينْسَحِبُ تارَةً وهكـذا حتى استطـاعَ أن يَرْتَـدَّ إلَى الوراءِ دُونَ أن يَتْبَعَـهُ العدوُّ



وأخذ خالد يتراجَعُ بمهارة فائقة

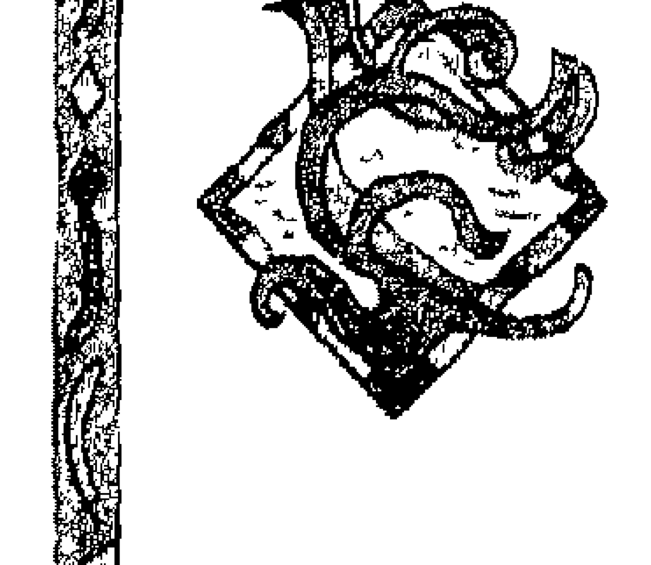


فأمر رسول الله أن يأخذوا الصبيانَ فيحملوهم على الركائب

فأفْلَتَ منهُ وهـذا هُو « الارتدادُ المَأمُونُ [1] » الذِى هوَ أَصعبُ مِن النَّصرِ ولا يَنجَحْ فيهِ إلاَّ قَائِدٌ ذكِيٌّ بَصِيرٌ .

وهكَذَا أنقَذَ خـالدٌ الجيشَ وَيَكْفِى أنهُ عَـادَ دُونَ أن يَفقِدَسِوَى أربعةَ عَشَرَرَجُلاً .

وَعَلِمَ رسولُ اللهِ بِهذِهِ الأخبـارِ قَبْلَ أن تَصِلَهُ . . وأخبَرَ المسلمينَ فى المدينـةِ فكانَ وَقْـعُ الخَبَرِ على المُسلمينَ شـديـدًا وخرجَ صِبْيَـانُ المسلمينَ جَرْيًا لاستقبالِ الجيشِ العائدِ فـأمر رسولُ اللهِ أن يأخذوا الصِّبيانَ فَيَحمِلُوهُمْ على الرَّكَائِبِ وأن يُعطوهُ ابْنَ جَعْفَر الذِى يجرى لَهْفَانَ لِلِقَاءِ وَالِدِهِ الذى قُتِلَ فى المعركةِ .



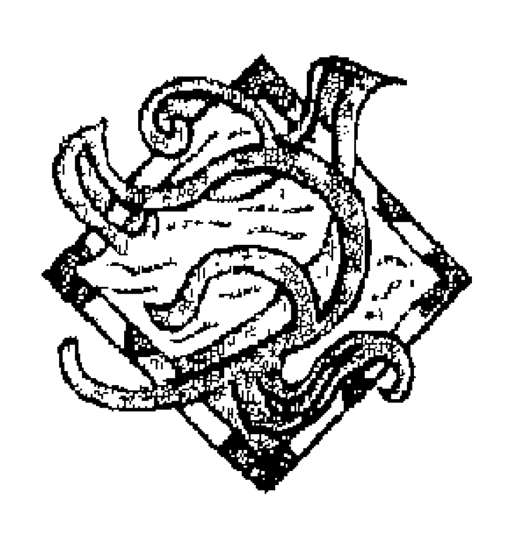
وراحَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلـمَ يُطَيِّبُ خَاطِرَ الصَّبِـىِّ وَيَمْسَحُ على رأسِهِ حتى هدأَ وعندما قـالَ أحدُ المسلمينَ للجيشِ العائدِ « يافُرَّارُ . . فررتُم من سبيلِ اللهِ » قالَ صلَّى الله عليهِ وسلَّمَ : « لَيْسَوا بِالْفُرَّار وَلَكِنَّهُمُ الْكُرَّارُ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى » .

---

(١) فى موقعـة « دنكرك » افتخـر الانجليز بـأنهم استطاعـوا الارتداد أمـام جيوش الألمان فى الحرب العالمية الأخيرة . . حتى كانوا يسمونها « بالهزيمة المنتصرة » .

الفتـــحُ المبيـــنْ [1]

٢٠ رمضـــانُ سنة ٨ هـ



رغمَ انتصارِ الإسلامِ وظهورِه فى الجزيرة العـربيةِ فإن بقاءَ مكةَ عَلى شِركِها كان العقبةَ أمامَ إتمام هذا النجاحِ وانتشارِه .

ثُمَّ كانَ صلـحُ الحُدَيْبِيَةِ بين رسولِ اللهِ وقريشٍ والـذى جاءَ فيهِ أنهُ مـن أحبَّ أَنْ يحالـفَ محمدًا فَلْيُحَـالفْهُ ، ومَـنْ أرادَ أَنْ يحالفَ قريشًا فليحالفْهَاْ ، فحالفَتْ بنوُبكرٍ قريشًا وحالفَتْ خزاعةُ رسولَ اللهِ صَلَّى الله عليه وسلمَ . فقوَّتْ هذه النِدِّيَةُ ظهرَ المسلمينَ .

ثمَّ كان دخـولُ الأَبطَالِ المغاوِيْرِ منَ الكفارِ فِى الإسـلامِ كخالدِ بْنِ الـوليدِوعمـرُو بنِ العاصِ وعثمانَ بـنِ طلحةَ سببًـا فِى إضعافِ أعداءِ الإسلامِ وزيادةِ قوةِ المسلمينَ

ثمَّ كانت عُمرةُ القضاءِ [2] التى هزتْ مكةَرغمًا عنها نصرًا آخرَ، فقـد أوشكَ أهلُهـاْ أن يهتفُـوا مع المسلمينَ عنـدمْا كـانـوا يرفعـون

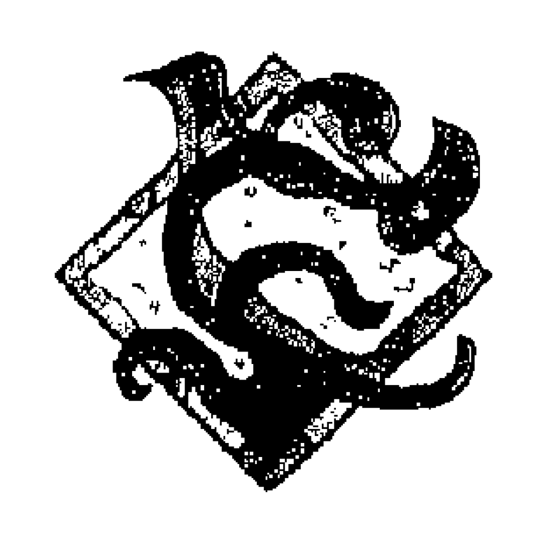
---

(١) أى الظاهر على كل فتح .

(٢) سُميت كذلك لأن المسلمين مُنعوا من العمرة قبل عام ثم عادوا لأدائها قضاء .

أيديهمْ مُهللينَ [١] مكبرين [٢] ملبينَ [٣] عندَ طوافِهم بالبيتِ .

« ولا أحدَ ينكر أن نشأةَ جيلٍ جديـدٍ سمعَ بالإسلامِ منذُ المهدِ ونعومَةِ الأظافرِ فلم تتعمقْ فيـهِ عبادةُ الأصنام قد أحسَّ بالتقصير والتخاذُل [٤] » ، فالـدينُ الـذى نبعَ فى مكـةَ اعتنقتْهُ أكثـرُ بُلدانِ العربِ إلا مكةَ . ومحمدُ القرشيُّ أصبحَ حَظيًّا [٥] عندَ أكثرِ العربِ ولكنَّ القرشيينَ يعـادونَهُ . . ياَللعَارِ !! كلُّ ذلكَ جعـلَ مكةَ تترنَّحُ وأصبحتْ على وشكِ السقوطِ والاستسلامِ .



نقض العهد :

وبينما كانَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلـمَ جالسًا فى المسجدِ إذْ جاءَ عمـروُ بنُ سـالمٍ الخُزاعِيّ مفزوعًـا مستنجدًا وأخبرهُ أنَّ قـريشًا وحليفتَهَا قبيلةَ بنى بكرٍ قد اعتدتْ على قبيلةِ خُزاعةَ وقتلتْ منهم رجـالاً ، وعندمـا فـرتْ قبيلةُ خـزاعةَ إلى الحرمِ تـابعـوهُم وراحـوا يقتلونَهُم تقتيلاً وقريشُ تمدهُم بالسلاحِ وتُعينهُم على الظلم .

---

(١) التهليل : قول لا اله الا الله .

(٢) التكبير : قول الله أكبر .

(٣) قول لبيك اللهم لبيك .

(٤) موسوعة التاريخ الإسلامى الجزء الأول د . أحمد شلبى .

(٥) حَظِيًّا : صاحب منزلة عالية .



جاء عمرو بن سالم الخزاعى مفزوعًا مستنجدًا

ثم أخذ يُنشدُ أبياتًا من الشعرِ يستنصرُ فيها رسولَ الله صلى الله عليهِ وسلمَ فقالَ :

يـــاربِّ إنِّي نَاشـدٌ محـمـــــدا . . . حِلفَ أبينا وأبيه الأَتَلدَا (١)

إن قـــريشًــا أخلفُــوكَ الموعِـــدَا . . . ونقضـوا ميثـاقَـكَ المؤكَّــدَا

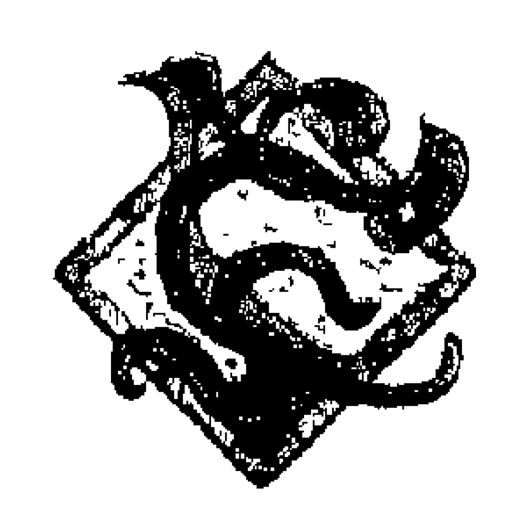
هُـم بَيَّتُــونَــا بــالـوَتِيرِ هُجَّــدَا . . . وقتلُـونَا رُكَّعًـا وَسُجَّــدَا (٢)

فانصُرْ - هَدَاكَ اللهُ - نَصْرًا أَبَدَا[٣] . . . وادعُ عبـادَ اللهِ يَأتُــوا مَــدَدا

فهبَّ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ واقفًا وقال :

«نُصرتَ ياعمرُو بنُ سالمٍ» .

وبدأَ سيدُ الخلقِ يُعدُّ العدةَ لفتحِ مكةَ .



وأَحسَّتْ قـريشٌ ــ بعد فـواتِ الأوانِ ـ خطـأَهاْ ، فخـرجَ أبو سفيانَ إلى المدينةِ ليُصلِحَ ما أفسدهُ قومُهُ ، وعندمَا بلغَ المدينةَ اتجه إلى بيـتِ ابنته أمِّ حبيبـةَ زوج رسـولِ اللهِ ، فلما همَّ أَنْ يجلـسَ على فراشِ رسولِ اللهِ طوتهُ عنهُ أمُّ حبيبةَ فقالَ لها مندهشًا :

- يابُنَّية ، ماأدرىْ أَرَغِبتِ بى عنْ هذا الفِراشِ أمْ رَغِبْتِ بهِ عنِّى؟

فقالتْ لهُ على الفورِ :

---

(١) القديم العهد .

(٢) غدرا ونحن نصلى .

(٣) نصرا عزيزا .



فخرج أبو سفيان إلى المدينة ليصلح ماأفسده قومه

ـ بلْ هوَ فراشُ رسـولِ اللهِ ، وأنتَ رجلٌ مشركٌ ، فلمْ أحبَّ أنْ تجلسَ على فراشِ رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ .

فصُدِمَ أبُو سيفانَ وقالَ آسفًا : « واللهِ لقـد أصابَكِ بعدِى يابنيةُ شرٌ »

ثمَّ خرجَ مذهولاً حتـى دخلَ على رسولِ اللهِ فى المسجدِ فكلَّمهُ فلم يـردَّ عليه ، فكانتْ صـدمةً أسوأ من الأولى فَخـرجَ مُضَعْضَعَ النفسِ إلى أبى بكرٍ فاعتذرَ إليـهِ فى لُطفٍ . . فذهب إلى عمرَ . . فأغلظَ لهُ القولَ فاتجهَ يائسًا إلى علىٍّ بن أبى طالبٍ يرجوهُ فقال لهُ : ياعلىُّ إنكَ أمسُّ القومِ بى رَحِمًا ، وقـدْ جئتُ فى حاجةٍ فلا أرجِعَنَّ كما جئتُ خائباً فاشفعْ لى . . فقالَ له علىٌّ :

« ويحكُ يـا أبـا سفيـانَ واللهِ لقد عـزمَ رسـولُ اللهِ على أمـرٍ مـا نستطيعُ أن نُكلِّمهُ فيهِ» ثمَّ عـادَ أبو سفيانَ إلى المسجدِ ونادى « أَيُّها الناسُ إنى قد أُجرتُ بين الناسِ » ثمَّ ركبَ بعيرَهُ وانطلقَ راجعاً إلى مكة يجرُّ أذيالَ الخيبةِ والندمِ » .



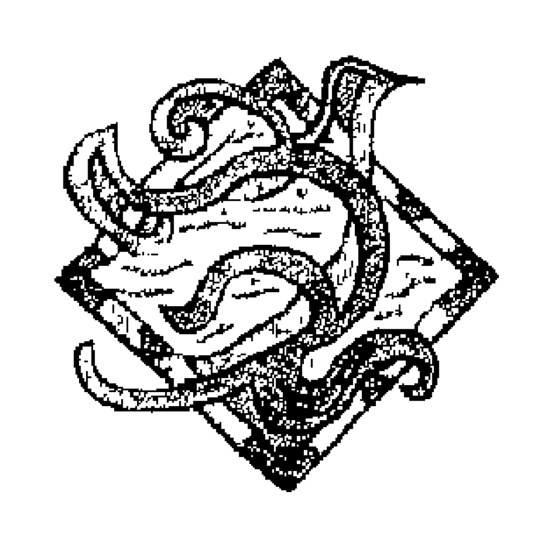
حادثٌ مستغربٌ : (١)

وبينما كانَ رسولُ اللهِ يعدُّ العُدةَ لغـزو مكةَ وقد ناشدَ المسلمينَ بالسِّرِّيـة والكِتْمانِ حتَّى يُبـاغِتَ (٢) قريشًـا فإذا بحـاطِبِ بـنِ أبى

(١) غريب عجيب . (٢) يفاجىء .

بلتَعةَ يكتبُ خطابًا إلى قريشٍ يخبرهُم بما عزمَ عليهِ رسولُ اللهِ ثم استأجر امرأة وأمرها أنْ توصلهُ إلى قريشٍ وتحايلَتْ المرأةُ حتى خَرجتْ مَن المدينةِ متَّجهةً إلى مكةَ . . . فأخبَرَ الله نَبيَّهُ بما صنعَ حاطِبٌ ، فأرسلَ عليَّ بنَ أبى طالبٍ والزبيرَ بنَ العوَّام وراءَها . . فأدركاهَا فى الطريقِ فأنكَرتْ ثم هدَّداها فأخرجَتِ الخطابَ من ضفائِرهَا . . وعادُوا إلى المدينةِ وسلماهُ إلى رسولِ اللهِ . . فدعا رسولُ اللهِ « حاطبًا » وأطلعهُ على الخطابِ ثم قالَ لهُ :

« ماحملكَ على هذا » ؟



فأُحرِجَ حاطبٌ وظنَّ أنه هالكٌ لا محالة إلا أنْ يصدُقَ رسولَ اللهِ فقالَ : يارسولَ اللهِ لا تعجَلْ عليَّ ! فواللهِ إنى لَمؤمنٌ باللهِ ورسولِه ماغيَّرتُ ولابدَّلتُ ولكنَّى ليس لِى عائلةٌ احتمى فيها ولىَ فى مكةَ ولدٌ وأهلٌ فأردتُ أن أُجاملَ قريشًا فيحمُونَ قرابَتى . . فالتفتَ رسولُ اللهِ لأصحابِه وقالَ : أما إنه قد صدقكم فيما أخبرَكُمْ بهِ . . وتذكَّرَ رسولُ اللهِ تاريخَ الرجلِ فى الجهادِ فَرَغِبَ فى العفو عنهُ . ولكن عمرَ بنَ الخطابِ غضب وقالَ لحاطبٍ « قاتَلَكَ الله» !

تَرى رسولَ اللهِ يكتمُ أمَرهُ فتكتبَ إلى قريشٍ ؟ يارسولَ اللهِ دعنِى أضربْ عنقَ هذا المنافقِ .

فتبسَّم الرحمةُ المهداةُ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ وقالَ :



ثم استأجر امرأة وأمرها أن توصل الخطاب إلى قريش

ومايدريكَ ياعمرُ ، لعلَّ اللهَ قدِ اطلعَ على أهلِ بدرٍ فَقَالَ لهمْ :
« اعمَلُوا ماشِئْتُم فقَد غَفَرتُ لكُمْ »[1] .



اجتماع الأطفال :

اجتمعَ أطفالُ المدينةِ بعد صلاة المغربِ فى المسجدِ وراحوا يتحدثونَ قالَ قائلٌ منهم :

ـ إنَّ حاطبًا بنَ أبى بلتعة قد خرجَ عن الصوابِ فى هذا العملِ . .

فردَّتْ صبيةٌ لم تتجَاوز الحاديةَ عشرةَ قائلةً . .

ـ ما كانَ لهُ أن يتودَّدَ إلى المشركينَ الذينَ تبجَّحوا بالكفرِ وآذُوا رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ والمسلمينَ .

وقالَ طفلُ ثانٍ :

ـ إن رسولَ اللهِ عرفَ أنَّ حاطباً لم يكذبْ وعلمَ أنَّه خائفٌ على ابنهِ وأهلهِ إن هُزِمَ المسلمونَ أن ينتقموا من ولدهِ خصوصاً وأن حاطبًا ليس لهُ أهلٌ ولا عشيرٌ تحميه . وهنا ثارَ الطفلُ الأولُ وقالَ :

ـ إن المشركينَ لم يرحمُوا فى عداوتهمْ للإسلامِ رحمًا ولا أهلاً ولا

(١) كان حاطب بن أبى بلتعة قد أبلى بلاء حسنا فى غزوة بدر.



اجتمع أطفال المدينة بعد صلاة المغرب في المسجد

ينبغى عَلينا أَن نحرصَ على وُدِّهِم وقد خَاصمناهُم فى سبيل اللهِ .

وعنـدئذٍ جاءَ أحـدُ الأطفـالِ متهلـلاً كأنـهُ يحمـلُ خبرًا مُهمًّا . وقال :

ـ اسمعُـوا . . لقد نـزلَ الوحـىُ على رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليـهِ وسلمَ بآياتٍ تحسمُ موقفَ المسلمينَ من الكفارِ فقالَ تعالَى :

« ياأيُّها الـذينَ آمنُـوا لا تتخذُوا عَدُوِّى وعَـدُوَّكُمْ أوليـاءَ تلقونَ إليهمُ بالمودَّةَ وقد كَفرُوا بما جَاءَكُم مِن الحقُ » [١] .

إسلامُ أبى سُفْيَانَ :



خرجَ رسولُ اللهِ فى نحوِ عشرةِ آلافٍ من المهـاجرِينَ والأنصارِ وبعضِ القبائلِ العربيَّةِ سعيًا إلى مكةَ وكانَ يدعُو ربهُ :

« اللهُمَّ خُذِ العيونَ وَالأخبارَ عـن قريشٍ ، حتى نَبغتَهـا » « أىْ نفاجئَها فى بلادِها » .

كانَ رسـولُ اللهِ يدعُـو بذلـكَ حتى لاتستعـدَّ قريـشٌ للحربِ فيدخُلَ مكةَ دونَ أن يسفِكَ الدماءَ ، فيفتحَ البلدَ الحرامَ ويجعلَهُ كما أرادَ اللهُ مثابةً [٢] وأمنًا ويهدمَ الأوثانَ وينشرَ دينَ اللهِ .

فلما كانَ رسولُ اللهِ بهذا الجيشِ العريضِ على مشارفِ مكةَ لَقِيَهُ العبـاسُ بنُ عبـدِالمطلـبِ مُهاجـرًا بعيالـهِ إلى المدينـةِ . . فأرسـلَ

---

(١) سورة الممتحنة : آية ١ .   (٢) مثابة : ثوابًا .

العباسُ بعيـاله إلى المدينـةِ ورجعَ مع رسـولِ اللهِ إلى مكةَ . ثـم أمَر رسولُ اللهِ الجيشَ أن يستريـحَ وأن يوقِدوا النيرانَ جميعًا حيـثُ نزلوا فأوقَـدوا عشرةَ آلافِ نارٍ . . فكـانَ المشهدُ مـروعًا للنـاظريـنَ . . فخشِيَ العباسُ على أهْـلِ مكةَ من هذا الحشدِ الكبيرِ فـركبَ بغلةَ رسولِ اللهِ وخرجَ يبحثُ عن حطَّابٍ أو صاحبِ لبنٍ أو أى إنسانٍ يرسلهُ إلى مكةَ ليبلغَ أهلهَا أن يسارعُوا ويستأْمِنُوا [1] رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ قبلَ أن يدخلَ عليهِم عُنوَةً [2] .

وبينما كانَ يسيرُ على بغلَـةِ رسولِ اللهِ وصلَ إلى مسامعـهِ صوتُ أبو سفيانَ يقولُ : ما رأيتُ كالليلةِ نيرانًا قطُ ولا عسكَرا !

فإذا بصوتِ بَديلَ بنِ ورقاءَ يقولُ :

ـ خُزاعةُ أذلُّ وأقلُّ أن تكونَ هذهِ نيرانَها وعسكَرها .

وعندئذٍ دخلَ عليهمُ العباسُ وقالَ :

وَيحكَ يا أبا سفيانَ ! هذا رسـولُ اللهِ صلى عليهِ وسلمَ واصباحَ قريشٍ واللهِ ! لقد خرجَ لكم فى قوةٍ لاتقْهرُ !

فقالَ أبُو سفيانَ ملهوفًا :

﴿ فما الحيلةُ ، فِداكَ أبى وأمِّى ﴾ ؟؟

---

(١) يطلبون الأمان منه .

(٢) أى بالقوة .



ثم أمر رسول الله الجيش أن يستريح وأن يوقدوا النيران فأوقدوا عشرة آلاف شعلة نار

فقالَ العباسُ :

« وَاللهِ لئِنْ ظفَرَ بـكَ رسولُ اللهِ ليضرِبَنَّ عنقك ! فـاركَبْ معى على هذه البغلَةِ حتَّى آتى بكَ رسولَ اللهِ فأَستأمِنَهُ لك » .

وركبَ أبُو سفيانَ خلفَ العبـاسِ ، وذهبَا إلى حيثُ كانَ رسولُ اللهِ ، فكانَا كلَما مـرَّا بنارٍ من نيرانِ المسلمينَ سمعَا صـوتًا ينادِى : مَنْ هذا ؟

وحينما يرَونَ بغلـةَ رسولِ اللهِ ، وعليهـا العباسُ يقـولونَ : عـمُّ رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ على بغلتهِ ، ويُفسِحُونَ الطرِيقَ فلما وصلاْ إلى نَـاْر عمرَ بـنِ الخطابِ ورأى عمرُ أبـا سفيانَ ، قـامَ إليه يصيحُ :



ـ أبُو سفيـانَ عـدوُّ اللهِ ، الحمـدُ للهِ الذى مكَّنـى منـكَ بغيرِ عقدٍ[1] ولا عهدٍ . وراحَ العباسُ يستحِثُّ [2] البغَلةَ على الجرى . . كـانَ كلُّ منهما يحاولُ أن يصـلَ إلى رسـولِ الله قبـلَ الآخرِ ووصـلَ العباسُ إلى حيثُ كانَ الرسولُ ، ودخلَ عليهِ ، ودخلَ عمرُ خلفهُ ، وقالَ عمرُ :

---

(١) بلا مسؤلية أو محاسبةٍ على قتلك .

(٢) يدفعها .



وركب أبو سفيان خلف العباس

ـ يارسولَ اللهِ ، هذا أبو سفيـانَ قد أمكنَ اللهُ منه بغيرِ عقدٍ ولا عهدٍ ، فدعْنِى أَضْرِبْ عنقَهُ .

فقالَ العباسُ :

ـ يارسولَ اللهِ إنى قد أَجَرْتُهُ .

ورأى رسـولُ اللهِ أن يَصْرِفَ العبـاسَ وأبـا سفيـانَ . . ليعطِـىَ فرصةً كافيةً لأبى سفيانَ كـىَ يبيتَ يتفكَّرُ قبل أن يختارَ حتى يكونَ اختيارُهُ عن تروٍّ وتفكُّرٍ .

فقالَ :



ـ اذهبْ بِهِ ياعباسُ إلى رَحْلِـكَ ، فإذا أصبحتَ فأتِنِي بِهِ ، ولم ينمْ أبـو سفيانَ حتـى الصباحِ ، لقد بَـاتَ يُفكرُ كيـف يمكنُ أن ينتقم منهُ محمدٌ ؟ وماذَا عساهُ أن يفعلَـهُ بأهلِ مكةَ إنْ دخلَ عليهم بغتةً ؟

وفى الصبـاحِ جـاء العبـاسُ ومعـهُ أبُـو سفيـانَ إلى رسـولِ اللهِ وعِنـدمـا وقعَ عليـهِ بصرُ رسـولِ اللهِ صلى اللهُ وسلـمَ قالَ معـاتِبَـا مُتودِّداً :

ـ ويحكَ يا أبا سفيانَ ، ألم يَئِـنْ « يعنى : ألم يحن » لكَ أَنْ تعلَم أنه لا إلهَ إلا اللهُ ؟

فقالَ أبُو سفيانَ على الفورِ :

ـ بأبِى أنت وَأمِّى ، ما أحْلمَكَ وأكرمَكَ وَأَوْصَلكَ ؟

واللهِ لقد ظننتُ أن لـو كانَ مع اللهِ إلهٌ غيرُهُ ، لأَغنَـى عَنِّى شيئًا بعدُ .

فقالَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ :

ـ ويحَك ياأبا سفيانَ ! ألم يَئِنْ لكَ أن تعلمَ أنِّى رسولُ اللهِ ؟

قالَ : فبأبِى أنتَ وأَمِّى ، ما أحلمكَ وأكرمكَ وأوصلكَ !

أماَ هذه واللهِ فإنَّ فى النفس منها حتى الآنَ شيئًا .



فقالَ العباسُ :

ـ وَيحكَ ! أَسْلِمْ وَاشْهَدْ أَنَّ لا إلهَ إلا اللهُ ، وأنَّ محمدًا رسولُ اللهِ قبلَ أن تُضربَ عُنقُكَ .

فقالَ أبُو سفيانَ :

ـ أَشْهَدُ أَنَّ لا إله إلا اللهُ وأنَّ محمدًا رسولُ اللهِ .

فقالَ العباسُ :

يارسولَ اللهِ إنَّ أبا سفيانَ رجلٌ يحبُّ الفخْر فاجعلْ لهُ شيئًا .

قالَ رسولُ اللهِ صلى الله عليهِ وسلمَ :

ـ نعمْ ، مَنْ دخلَ دارَ أبى سفيـانَ فهو آمنٌ ، وَمَنْ أغلقَ عليهِ بابهُ فهو آمِنٌ ، وَمَنْ دخلَ المسجدَ فهو آمِنٌ .



قال أبو سفيان :أَشهد أَن لاإله إلا الله محمد رسول الله

وتأهَّبَ جيشُ المسلمينَ لدخولِ مكـةَ ، وركب رسولُ اللهِ ناقَتهُ وراحَ أبو سفيانَ يصرخُ :

ـ مَنْ دخلَ دارَ أبِى سفيانَ فهـو آمِنٌ ، وَمَنْ دخلَ المسجدَ فهو آمِنٌ ، وَمَنْ أغلقَ بابَهُ فهو آمِنٌ .

ودخلَ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ فى كتيبتهِ الخضراءَ يومَ العشرينَ من رمضانَ سنةَ ثمانٍ للهجرةِ ، وقد اختبأ الناسُ فى دُورهم ، بينما وقفَ صِبيانُ مكـةَ فوق الأسطُـحِ يرقُبـونَ الموقفَ . . فـرأَوْا رسولَ اللهِ فى مـوكبٍ مهِيـبٍ والمسلمونَ حـولَـهُ يهلِّلونَ ويُكبِّرونَ بينما رسـولُ اللهِ يسجدُ على ظهـرِ ناقتهِ شكراً للهِ ، فقـد رجعَ مكةَ منصـوراً بعدَ أن خرجَ منها خائفاً يترقَّبُ .



وراحَ رسـولُ اللهِ صلى الله عليهِ وسلـمَ يقـرأُ سـورةَ الفتحِ حتـى انتهى إلى الكعبـة ، وكبَّرَ المسلمونَ من خلفـه ثمَّ طافَ سبعًـا ثمَّ صلى فى مقامِ إبراهَيمَ ثمَّ انصرفَ إلى زمـزمَ فشربَ وتوضأَ والمسلمُون مـن حولـهِ يتـزاحمون على الماءِ الذى يتسـاقـطُ منـه حتى أنَّ أحـدَ القرشيينَ قالَ متعجبًا :

ما رأينا مَلكًا أبلَغَ من هذا ولا سمعنَا بِه !

ثـم دعـا رسـولُ اللهِ عثمانَ بنَ طلحـةَ ففتـحَ لـهُ الكعبـةَ فصلى ركعتينِ ثم وقفَ على بابِ الكعبةِ وقالَ :



كتيبة الخضراء

لا إلهَ إلاّ اللهُ وحدَهُ . . صدقَ وعدَهُ . . ونصَر عبدَهَ . . وهزمَ الأحزابَ وحدَهُ . . ثم خطَب خُطبةً . . ذكَر فيها جملةً من الأحكامِ ثم قالَ :

« يامعشَر قريشٍ إنَّ اللهَ قد أَذهَبَ عنكُم نخوةَ الجاهليَّةِ وتعظُّمهَا بالآباءِ . . . الناسُ من آدمَ ، وآدمُ من ترابٍ » ثم تلا هذه الآيَةَ : ﴿ **يا أَيُّها النَّاسُ إنَّا خلقَناكُمْ مِنْ ذكرٍ وأنثَى وجعلنَاكُم شُعوبًا وقبائِلَ لِتَعارفُوا ، إنَّ أَكرمكُمْ عندَ اللهِ أتقاكُمْ إنَّ اللهَ عَلِيمٌ خبِيرٌ** ﴾[1] ثم قالَ : يامعشَرقريشٍ ماذْا تقولونَ ؟ وماذا تظنُّونَ أنِّى فاعلٌ بكُمْ ؟قالُوا : خيرًا . . أخٌ كريمٌ وابنُ أخ كريم . . قالَ : أقولُ لكم كما قالَ أخِى يوسفُ : «لا تَثريْبَ[2] عليكُمُ اليومَ ، يغفِرُ اللهُ لكُم وهوَ أرحَمُ الراحِمين »[3] . . اذهَبُوافأنتُم الطُّلقَاءُ .



ثم اتَّجه هو وأصحابه إلى الأصنامِ وراحُوا يكسِّرونهَا قِطعًا قطعًا وهم يردِّدونَ :

﴿ **جاءَ الحقُّ وزهقَ الباطلُ إنَّ الباطِلَ كانَ زهوقًا** ﴾ .

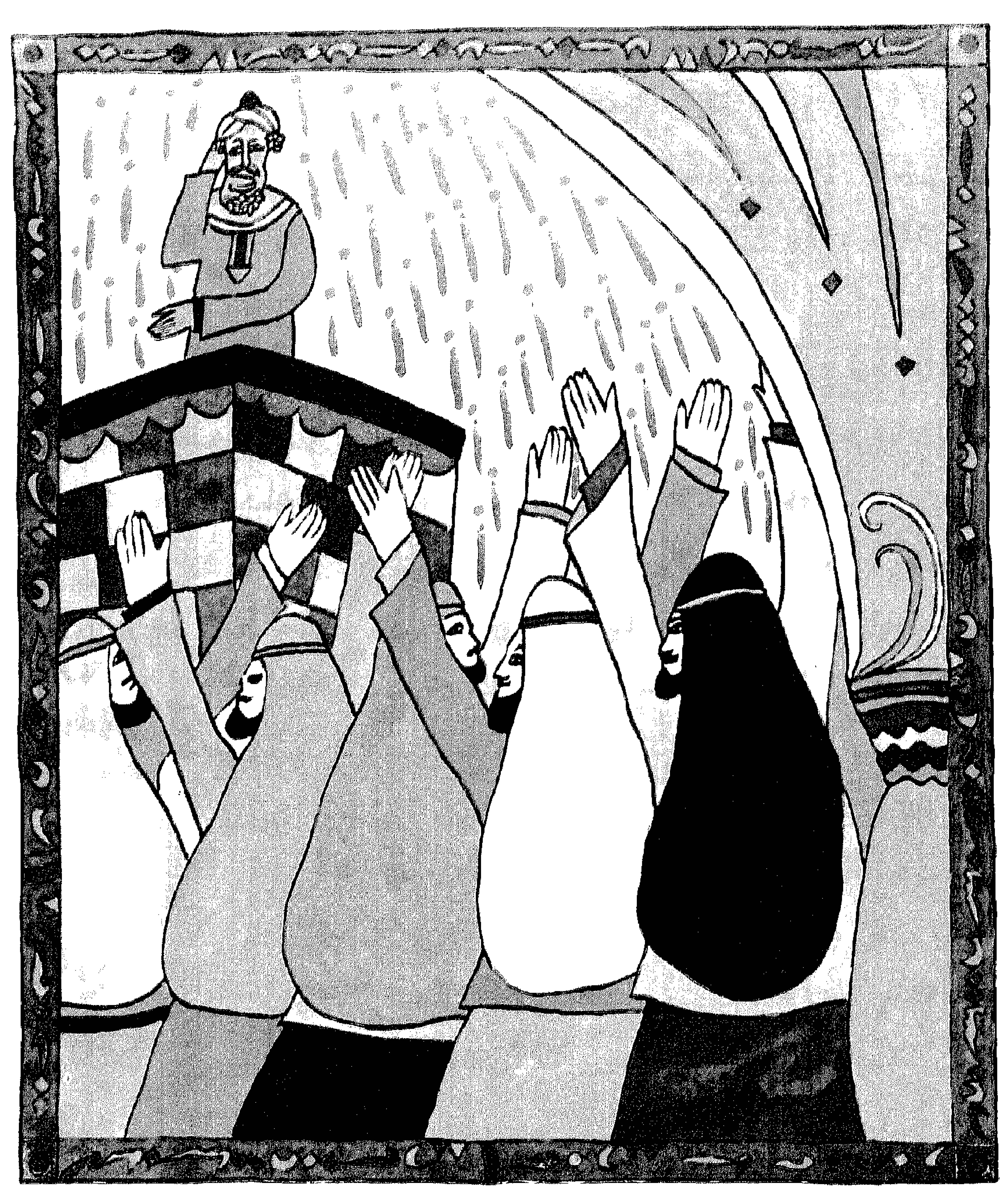
ولمَّا تطهَّرت الكعبةُ من الأصنامِ، أمَر رسولُ اللهِ بلالاً أن يعتَلِيَ الكعبةَ ويؤَذنَ لأوَّلِ مرَّةٍ . . وكانَ بِلالٌ يتميَّزُ بصوتٍ جميلٍ وحنُونٍ فراحَ يردِّدُ :

---

(١) سورة الحجرات ١٣ . (٢) لالوم . (٣) يوسف (٩٢) .



قل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا



بلال يؤذن الله أكبر الله أكبر

اللهُ أكبرُ ! اللهُ أكبرُ ! اللهُ أكبرُ ! اللهُ أكبرُ . . أَشهدُ أَنَّ لا إلهَ إلا اللهُ . . أَشهـدُ أنّ لا إلهَ إلا اللهُ . . أشهـدُ أنَّ محمدًا رسـولُ اللهِ . . أشهـدُ أن محمـدًا رسـولُ اللهِ . . حَـى على الصَّـلاةِ . . حَـيّ على الصَّلاَةِ . . حَيّ على الفلاحِ . . حَيّ على الفلاحِ . . اللهُ أكبرُ . . اللهُ أكبرُ . . لا إلهَ إلا اللهُ .

واقشعرَّتْ أبدأنُ الناسِ ولانَتْ قلوبُهم وراحُوا يتابِعُونَ المسلمينَ فى صـلاتِهِم خلـفَ رسـولِ اللهِ . . أمَّـا صِبْيـانُ مكـةَ فقـد راحُـوا يتبارونَ(١) فى أداء الأذانِ بنفسِ الطريقةِ التى قالها بلالُ .



ومنذُ ذلك الوقتِ وصـوتُ الأذانِ يُجلجلُ فى الكعبةِ فى كلِّ يومٍ خمسَ مرَّاتٍ .

---

(١) يتنافسون .

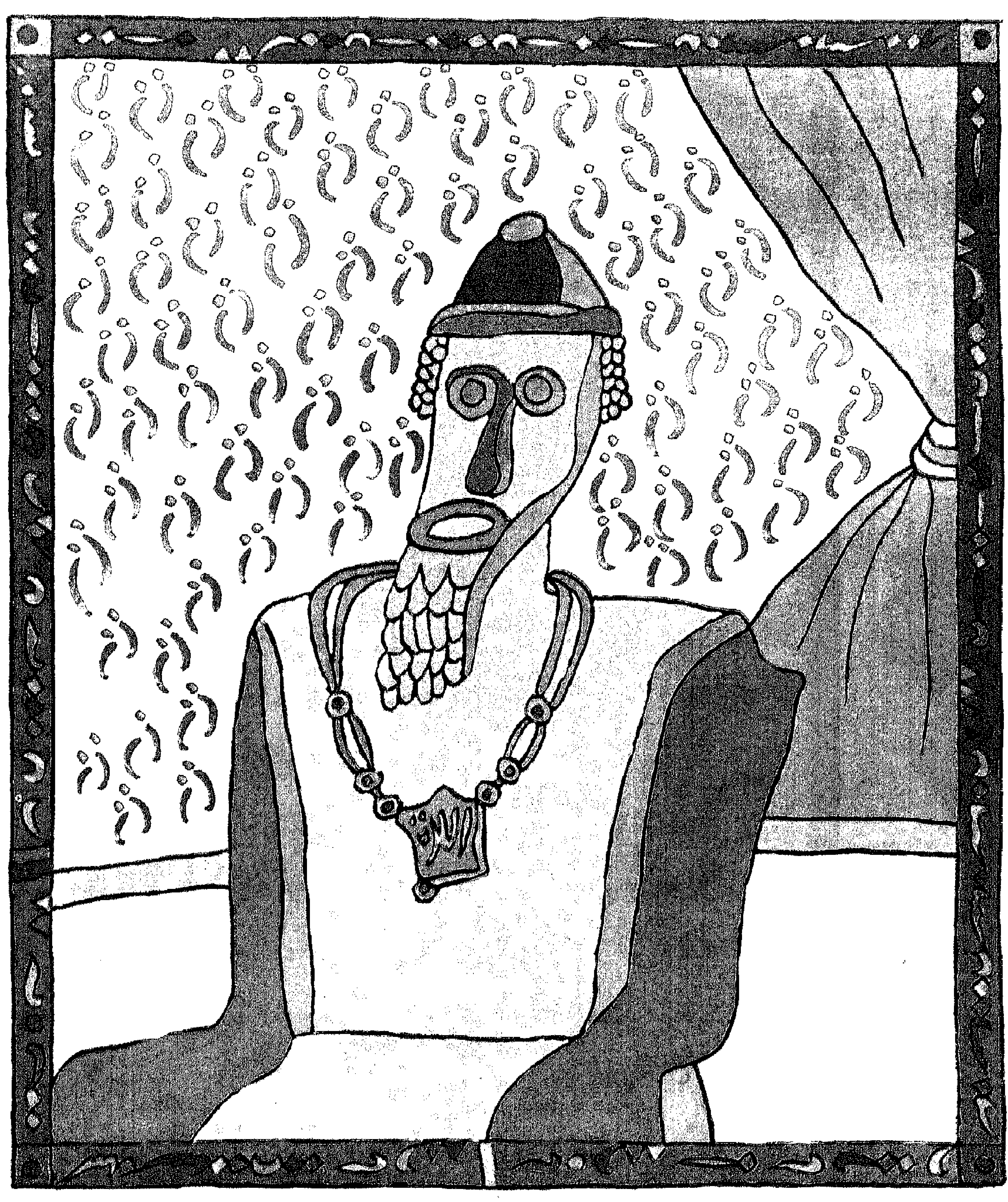
غـزوةُ حُنَيْنٍ

٦ شوال سنة ٨ هـ



عندما كانَ رسولُ اللهِ يحطمُ الأصنامَ هو وأصحابُهُ وكانَ عددُها نحـوَ ثلاثمائةٍ وستينَ صنمًا ، اغتـاظتْ قبيلتـا هوَازِنُ التـى كانـت خِيامهَـا فى نجد ، وثقيـفٌ التى كـانت تسكـنُ الطائفَ ورفضَـتْ الدخولَ فى الإسـلام وخشيتْ أَنْ تدورَ عليها الـدائرةُ ويهدمَ محمدٌ صنمَهَا الـذى تعبدُهُ ، وكـانَ يُدعَـى «اللاَّت » وكـانَ أكبرَ أصنام العربِ بعـدَ « هُبَلْ » فتشاورُوا فيما بينَهـم وقرَّرُوا أَنْ يبـادِرُوا محمدًا قبـلَ أَنْ يبـادِرَهـم وأخـذُوا يستعدونَ لـذلـكَ ويحرِّضـونَ القبـائل حولَهم . . فلمَّا أجمَعُوا أَمرهُم ولُّوا عليهم « مالك بنَ عوفٍ النَصْرِيِّ» وكانَ مـالكُ فتـىً حديـثَ السنِّ شـديدَ الحَميَّـةِ فقرَّرَ أَنْ يخرجَ إلى المعركةِ ومعه النساءُ والأطفالُ والأموالُ لِيدفَع ذَلكَ منْ جُرْأةِ الرجالِ وحماسِهم . . ولقد حـاولَ أحدُ شيوخِ قومهِ أَنْ يَثنيَـهُ عَنْ ذلكَ . . ولكنهُ ردَّ عليهِ رداً غليظًـا بأنهُ رجلٌ قد هَـرِمَ وفقدَ بصَرهُ فليَتْرُكْ أمَر القتالِ لِلشبـابِ ، وخرجَ مـالكٌ وتابعَـهُ قومُـه على هواهُ بـأهليهِم وأموالِهمْ .

وسمِع رسولُ اللهِ بهذا التحركِ فصمَّـمَ على أَنْ يَفاجئَهم قبل أَنْ



(اللات) أكبر أصنام العرب بعد « هُبل »

يفاجئُوهُ . . فخرجَ من مكةَ يوَمِ السبتِ السَادِسِ من شوالَ فى السنة الثامنة للهجرة فى اثنى عشَر ألفًا من الرجالِ . عشرةِ آلافٍ جاءَ بها إلى مكةَ ، وألفينِ من أَهلِها .



الإعجابُ بالنفسِ :

عندما رأى المسلمونَ أَنهم كثرةٌ فى العددِ والسلاحِ وأن قريشا أصبحت معهم أصابهُم مرضٌ لعينٌ وهو الإعجابُ بالنفس والاطمئنانِ بالكثرةِ والسلاحِ ونَسوا أَنَّ النصَر لايكونُ إلا من عندِ اللهِ العزيزِ الحكيم ، وأَنهم قد انتصرُوا من قبلُ لا بكثرةِ عددٍ ولابوفرةِ سلاحٍ ولكِن بقلوبٍ عامرةٍ بحُبِّ اللهِ ورسولِهِ والرغبةِ فى النصرِ أو الشهادةِ وتواضُعٍ للهِ وفدائية وقتالٍ فى سبيلِ إعلاء كلمةِاللهِ فِى الأرضِ فكانِ النصرُ المبينُ وكانَ إقبالُ الناسِ على الإسلامِ وكانتْ الهيبةُ والمكانةُ التى أسمعَتْ الشرقَ والغْرب، فماذا حدثَ ؟

يقولُ تعالى فى سورةِ التوبةِ ﴿ **ولقد نصركُمُ اللهُ فى مواطِنَ كثيرةٍ، ويومَ حُنَينٍ إذ أَعجبتكُم كَثرتُكُم فلم تُغْنِ عَنكُم شيئاً ، وضاقَتْ ، عليكُمُ الأرضُ بما رحُبَتْ ثُمَّ ولَّيتُم مُدبِرينَ** ﴾ (١) .

---

(١) التوبة : ٢٥ .

لقد خرجَتْ هَوَازِنُ وثقِيفُ إلى وادٍ من أودية تِهامَةَ كثيرِ المضايِقِ والشِّعابِ . . فجعلَ مالك بن عـوف فريقًا من رجالِهِ على رءوسِ المضايِقِ والجِبالِ وأمَر الرُّمـاةَ أَنْ يفاجِئُوا المسلمينَ عندَ دخولِهِم من الشعـابِ بالنِّبـالِ . . فـإذا أذهَلتهُمُ المفـاجِئَةُ مـالـوا عليهِم مَيْلَـةً واحدةً .

أَمَّا رســولُ اللهِ صلى عليهِ وسلمَ فقـد انشغلَ فى تنظيـم الجيش فعملَ خـالِدُ بنُ الـوليدِ فى المقدمةِ ، ووضَـع الألويةَ والـرَّاياتِ فى أهلِهَا مـن المهاجـرينَ والأنصـارِ ولاحظَ صلى اللهُ عليـهِ وسلمَ مـا أصـابَ المسلمينَ من عُجْـبٍ وخُيَلاءٍ فـأخذَ يـردِّدُ بعضَ الآيـاتِ ﴿ولاتمشِ فِى الأَرضِ مرحَاً إِنَّ اللهَ لايُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ (١) .



« من تواضَعَ للهِ رفعهُ » حديثٌ شريفٌ

وراحَ يكرِّرُ . . « اللهُـمَّ إِنِّى أبْـرأُ من حولِى وقـوتِّى إلى حـولِكَ وقوَّتِـكَ » ، ولكنَّ المسلمينَ كـانوا قد امتلـؤُا زهوًا بتنظيـمِ الجيشِ وكثرةِ العددِ وقـوةِ السلاحِ . . وعندما دخلُـوا وادِى حُنَيْنَ انهالَتْ عليهِمُ السهامُ فى الظلامِ مِن كلِّ ناحيةٍ . . فضاقَتْ عليهمُ الأرضُ بما رَحُبَت ، وتـراجعُوا بغيرِ نظامٍ وداسَ بعضهُم على رقـابِ بعضٍ

---

(١) لقمان : ١٨ .



خرجت هوازن وثقيف إلى وادٍ من أوديه تهامة

وتدافعـتْ الإبلُ والخيولُ فى غيرِ وعيٍ فلما رأى رسـولُ اللهِ الهلعَ والتراجعَ صاحَ بالناسِ :

أيُّها النـاسُ ؟ هلُمُّوا إليَّ ! أنـا رسـولُ اللهِ ! أنـا محمدُ بـنُ عبـدِ اللهِ . . أنا النبُّى لاكَذِبْ . . أَنَا ابن عبدِ المطلِبْ .

وكانَ العباسُ بنُ عبدِ المطلِـب رجلاً جهيرَ الصوتِ . . فأمرهُ رسولُ اللهِ أنْ ينادىَ على الأَنصارِ والمهاجرينَ ليرجعوا .

فجعلَ العباسُ يصرخُ « يامعشَر الأنصارِ الذين آوَوْا [٢] ونصرُوا . . يامعشَر المهاجرينَ الذيـن بايعُوا رسولَ اللهِ على الشهادةِ هلُمُّوا إلى رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ فما كادُوا يسمعونَ الصراخَ حتى عادُوا يلتفُّونَ حولَ رسولِ اللهِ » لبيكَ لبيكَ .

وراحُـوا يقاتلـونَ فى صمودٍ عجيـبٍ وشـدَّ بعضهُمْ أزرَ بعـضٍ وتماسكُوا وفى هذه الأثْناءِ بدأَ الصبحُ يُنيرُ المكـانَ فانكشفت مواقعُ العـدُوِّ . . فحملُـوا عليهِـم حملـةَ رجـلٍ واحـدٍ فتفـرَّقـتْ جموعُـهُ وتقهقَرتْ للخلفِ وفـرَّ مالكُ بنُ عـوفٍ وفرَّ من ورائِه بقيةُ رِجـالِه فتابعهُمُ المسلمونَ وطـاردوهُم حتى احتمىَ مالكُ بـنُ عوفٍ بأحدِ حصونِ الطـائفِ وتركَ وراءهُ كلَّ مـا ساقَ من الأهـلِ والأموالِ . . فغَنمَ المسلمونَ غنيمةً لم تحدث من قبلُ .

---

(١) يذكرهم بأنهم سبق أن آووا المهاجرين فى المدينة .

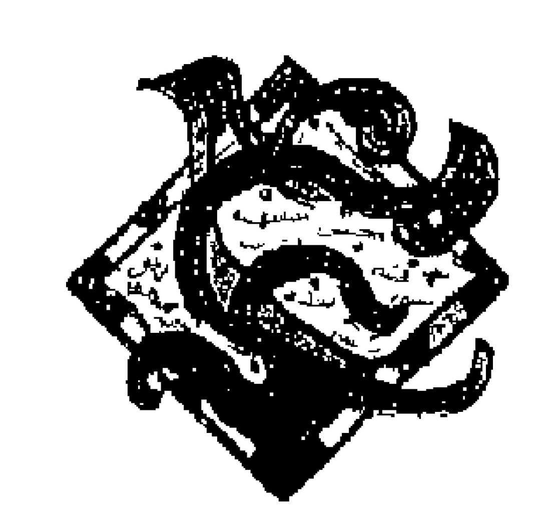


وفر مالك بن عوف ومن ورائه بقية رجاله المسلمون وطاردوهم .

وأمرَ رسولُ اللهِ بِالسَّبَايـا والأموالِ فجُمِعتْ وسِيقَتْ جميعُها إلى وادى « الجُعَرَّانَةِ لأنه كانَ يتمنَّـى أنْ يستَسلِمَ القومُ ويُسْلِمُوا فيعيدَ إليهِم أموالَهُم ونساءَهُم وأطفالَهُم . .

ولكنَّ « مـالكَ بنَ عـوفٍ فرَّ بمن نجا مـن رجالِهِ ومـن رجالِ ثقيفٍ إلى الطائف وتحصنُوا فى حصونِهِم وغلَّقُوا الأبوابَ » .

ورغم أنَّ المسلمينَ كانُوا خبراءَ فى قتالِ الحصون إلاَّ أن رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلـمَ كانَ يأمُـلُ أن يستسلمُوا دونَ قتالٍ ويـدخُلُوا دينَ اللهِ . . وظلَّ رسولُ اللهِ محاصرَهُم بضعًا وعشرينَ ليلةً .

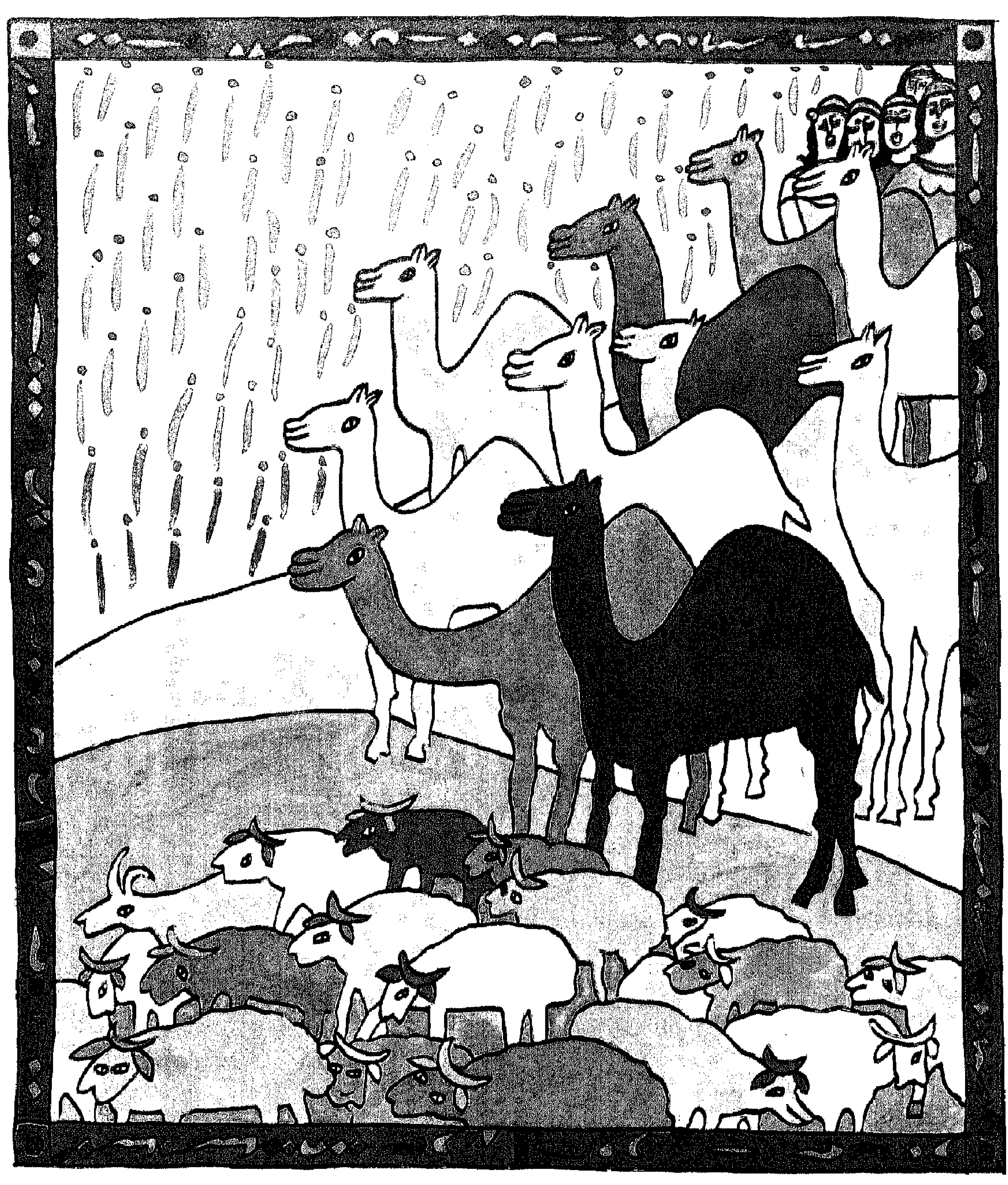


ثمَّ أمر رسولُ اللهِ أنْ يُنادَى فى عبيدِ ثقيـفٍ « من خرج إلينا فهو حُرٌ » فلما سمِـعَ العبيدُ ذلـك تسلَّلُوا واحـدًا بعدَ الآخـرِ فأعتقهُـم رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليـهِ وسلمَ . . ولقـد علمَ منهُـم أنَّ ثقيفًا قـد تـزودتْ فى حصـونِهَا بزادٍ يكفيهـا سنـةً كـاملةً ، فـرأى رسـولَ اللهِ ألَّافائِدةَ فى الحصارِ فآثرَ رسولُ اللهِ أنْ يرحلَ بالمسلمينَ وفى الطريقِ قالوا لرسولِ اللهِ :

ـ يارسولَ اللهِ ادعُ على ثقيفٍ أهل الطائفِ .

فقالَ ـ اللهُمَّ اهْدِ ثقيفًا ، وأْتِ بهم مسلمينَ . .

وعادَ رسولُ الله إلى الجُعَرَّانَةِ حيثُ حُبِسَتْ غنائِمُ حُنين ، وكانَتْ أربعةً وعشرينَ ألفاً من الإبلِ ، وأربعينَ ألفًا من الغنمِ وأربعةَ آلافِ



غنائم حنين .... وكانت اربعة وعشرين ألفا من الابل وأربعين ألفا من الغنم

أُوقِيَّةٍ من الفضةِ وستة آلافٍ من النساءِ والبنينَ . . فقسَّمَ رسولُ اللهِ الأمـوالَ وأجـزلَ العطـاءَ لمن دخـلَ الإسلامَ حـديثًـا بعـدَ دخـولِ المسلمين مكةَ ولتتألَّـفَّ قلوبُهُمْ ويُذْهِبَ الضغائِنَ مـن صدورِهِمَ ويزيَد من ولائِهِم وانشراحِهِم للإسلامِ . . حتى أنَّ الأنصارَ تأثَّروُا وقالَ بعضُهُمْ « عِندمَا عَادَ إلى أهلِهِ ولقىَ قوَمَهُ نَسِيَنَا » .

فجمعهُمْ رسولُ اللهِ وطيَّبَ خاطرَهُم وقالَ لهم :

« أترضونَ يامعشَر الأنصارِ أنْ يذهـبَ أهلُ مكةَ بالشاةِ والبعيرِ وترجعُـوا برسولِ اللهِ إلى مـدينتِكُم ؟ والـذى نَفسُ محمدٍ بيـدهِ لولا الهجـرةُ لكنتُ مـن الأنصارِ ولـو سلـكَ الناسُ شِعبًـا [1] وسلكتِ الأنصارُ شِعبًا لسلكتُ شِعبَ الأنصارِ اللهُمَّ ارْحَم الأنصارَ وأبناءَ الأنصارِ وأبناءَ أبناء الأنصار» .

فبَكَوْا جميعُهُم . . وقالُوا :

« رضينا برسول اللهِ قِسماً وحظًّا » .

دعوةُ رسولِ اللهِ :

لما فرَغ رسولُ اللهِ من تقسيمِ الغنـائِمِ حضَر وفدٌ من قبيلةِ هَوَازِنْ وأعلنُـوا إسْـلامَهُـم ورجـوا رسـولَ اللهِ فى ردِّ أمـوالِهِم وأهلِهِـم . . فخيَّرَهُم رسـولُ اللهِ بينَ الأهلِ والمالِ . . فـاختارُوا أبنـاءَهُم فقـالَ

---

(١) الشعب : الطريق .



وترك في مكة معاذ بن جبل ليفقه الناس في الدين

رسولُ اللهِ لأصحابِهِ : لقد تنازلتُ عن حقى وحقِّ بنى عبدِ المطلبِ فى المال السبْى وأَنَّ هؤلاءِ القومَ جاءوا مسلمينَ فمن كانَ عندهُ من سبيِهِم شىءٌ فليُكْرِم أخاهُ المسلمَ وله بكلِّ إنسانٍ ستُّ فرائضَ من أوّلِ ما يفىءُ اللهُ علينا [1] .

فردُّوا عليهِم نساءَهم وأبناءَهم .

وسألَ رسولُ اللهِ وفَد هَوَازِنَ عن مـالِكِ بنِ عوفٍ ، فعلمَ أنَّه لا يزالُ بالطائِف معَ ثقيفٍ ، فطلبَ منهُم أنْ يبلغوهُ أنَّهُ إن أتاهُ مسلماً ردَّ عليهِ أهلهُ ومالَهُ ، وأعطاهُ مائةً من الإبلِ ، فلما علمَ مالكٌ بوعدِ رسولِ اللهِ تسلَّـلَ من وراءِ ثقيفٍ وأتـى رسولَ اللهِ مسلماً ، فـأعطاهُ رسولُ اللهِ مـا وعدهُ وجعلهُ أميراً على من أسلـمَ من قومِـهِ ، فكانَ يقاتِلُ بِهِمْ ثقيفًا ويُغيرُ على سرحِهِم [2] حتى ضيقَ عليهِم .

وخرجَ رسـولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلـمَ فى « الجُعَرَّانَـةِ » معتمرًا فدخَل مكةَ وطافَ وسعَى وحلقَ ثم رجَع إلى الجُعَرانَةِ فى ليلتِه وتركَ فى مكةَ معاذَ بنَ جبلٍ ليُفَقِّهَ الناسَ فى الدينِ وعتَّابَ بنَ أُسَيدٍ وكانَ فتىً فى نحـوِ العشرينَ من عمـرهِ يتميَّزُ بـالوَرَعِ [3] والتقَوى فأمَّرَهُ رسولُ اللهِ على مكةَ أُمِّ القرى لورعِهِ وتقـواهُ رغمَ حداثةِ سنِّهِ . . ثُمَّ اتجهَ رسولُ الله إلى المدينةِ المنوَّرةِ .

---

(١) من أول مانغنمه فى الحرب .
(٢) على إبلهم وزرعهم .
(٣) شدة التقوى .

« غـزوةُ تبـــوك »

شهر رجبُ ، السنةُ التاسعةُ للهجرةِ

إعتـادَ أطفالُ المدينـةِ أنْ يجتمعُوا فى مسجـدِ رسولِ اللهِ عقـبَ صـلاةِ المغـربِ حتـى صـلاةِ العشـاءِ ليـذكُـرُوا أخبـارَ الغـزواتِ والحكاياتِ المتعلِّقةِ بها .

ـ قالَ أحدُ الأطفالِ :

لكم كنُت أتمنى أنْ أشتركَ فى حصارِ المشركينَ فى الطائفِ حتى أتسللَ وأفتحَ لرسولِ اللهِ الحصونَ المنيعةَ التِـى اختبأَ فيها مالكُ بنُ عوفٍ ومن معهُ .



ـ وردَّ أحدُ الصبيانِ ـ وكان أكبر سنًا ـ :

ـ لقد حاولَ بعضُ المسلمينَ الدخولَ فى دبابةٍ [1] وظلوا يزحفونَ إلى الحصنِ ليخرقـوهُ ، ولكنَّ ثقيفًا ألقت عليهِم قطعًـا من الحديدِ المحماةِ فى النارِ . . فاضطَرُّوا للهربِ .

ـ وقالتْ فتاةٌ تبلغ من العمرِ الرابِعةَ عشرَةَ :

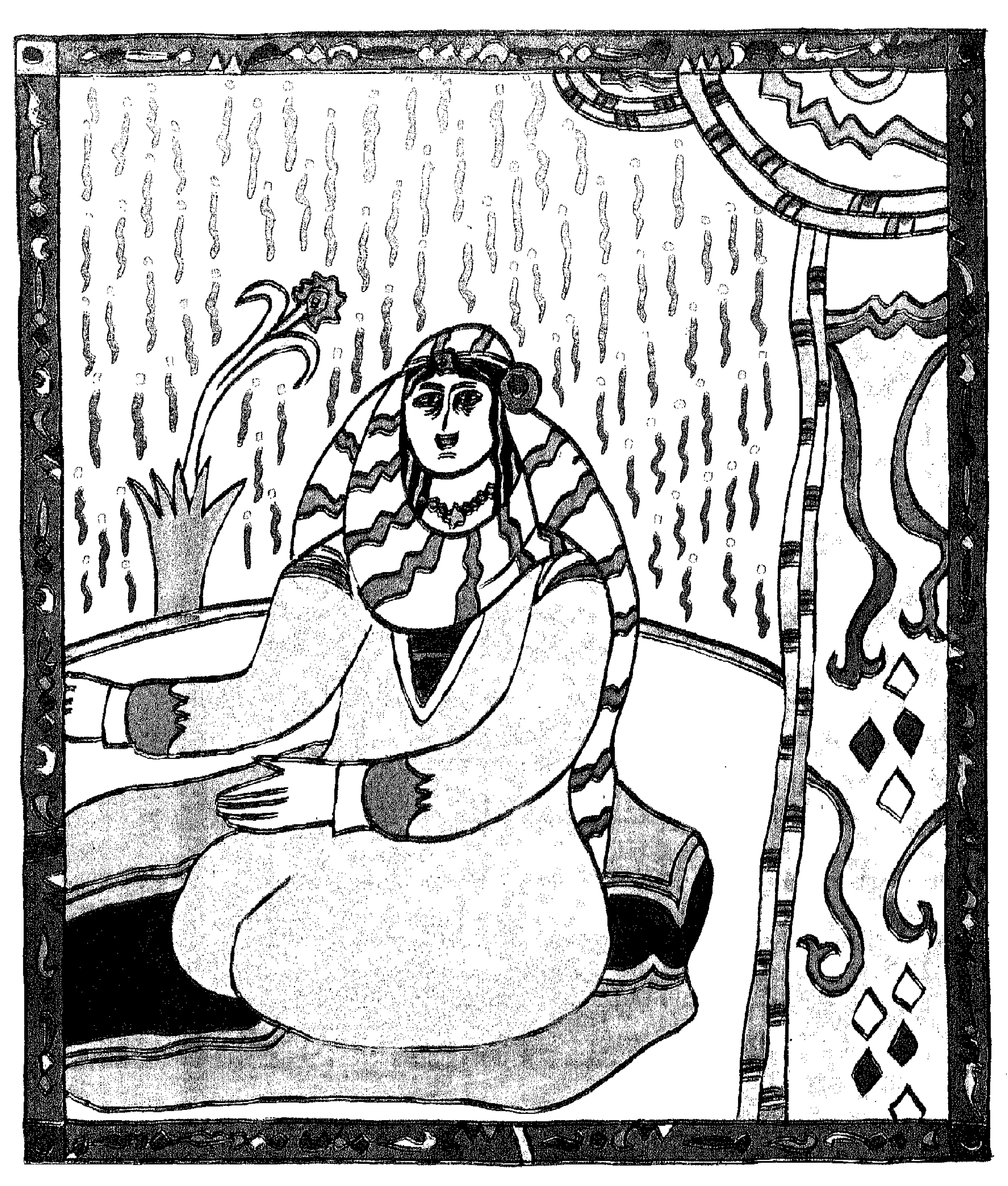
لماذا رفضَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلـمَ قَطْعَ ثمار العنبِ من حقولِ المشركينَ فى الطائفِ ؟

---

(١) كانت الدبابة فى ذلك الوقت من الخشب يحتمى بها الجنود وهم يحاولون اقتحام الحصون .



اجتمع أطفال المدينة فى مسجد الرسول عقب صلاة المغرب .



وبسط لها ردائه صلى الله عليه وسلم وأجلسها

ـ فقالَ كبيرُ الصبيانِ :

لقد أرسلُوا إلى رسولِ اللهِ أنْ يتركَها للهِ وللرَّحِم ، فنهَى المسلمينَ عن قطعِها صغيرةٌ .

ـ وعلَّقَتْ طفلةٌ :

يالرحمةِ رسولِ اللهِ ـ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ ـ . . لقد حضرَتْ الشَّيماءُ أختُ الرسولِ مِن الرضاعةِ أسِيرةً وقالت لِلمسلمينَ :

ـ أنا أختُ صاحِبِكُم .

فتعجَّبُوا من قولِهَا . . فظلَّت تُقْسِمُ أَنها أُختُهُ .

وعندما أخبرُوا رسولَ اللهِ بقولِها .

ـ قالَ : أحضِرُوهَا إليَّ .

فلما رآها . . قالَ لها : لاأُنكِرُكِ . . فَمَنْ أنتِ ؟!

ـ قالت : لهُ والدموعُ فى عينيها :

أنا أختُكَ . . بنتُ حليمةَ السعدِيةِ مرضعتِكَ . .

فقامَ رسولُ اللهِ لها وبسطَ لها رداءَهُ ، وأجلسهَا عليهِ وسألهَا عن حليمةَ وزوجِها الحارِثِ فأخبرتهُ بموتِهما . . فدمعَتْ عيناهُ . . وقالَ : أحسنُوا ضيافتَها وأَكرمُوها وأذَّنَ العشاءُ . . فقامُوا جميعًا لِلصلاةِ . . وعقب الصلاةِ مباشَرةً نادى منادٍ فى المسجِدِ .

ـ أيُّها المسلمونَ . . إنَّ قيصرَ الرُّومِ يُعِدُّ العُدَّةَ لغزوِ المسلمينَ فأجْمِعُوا أَمرَكم واستعدُّوا .

وانطلقَ الرجالُ لإعدادِ أنفسهِم واندفعَ الشبابُ خارِجَ المسجدِ . . وحدثَتْ جلبةٌ (١) بينما هبَّ الأطفالُ واقفينَ ينظرونَ إلى الكبارِ ويرقبونَهم وبعدما خرَجَ المصلونَ مِنَ المَسْجِدِ . .

اجتمعَ الأطفالُ مرةً أخرى . . وراحُوا يتحدثونَ .

ـ قالَ كبيرهُمْ وقد بلغَ من العُمْرِ الخامسةَ عشرةَ :

ـ ليس غريبًا أنْ يستعدَّ قيصرُ الرومِ لقتالِ المسلمينَ . . هل تذكرونَ كلمتهُ عندما أرسلَ رسولُ اللهُ ـ صلى الله عليهِ وسلمَ ـ رسولَهُ إليهِ ؟



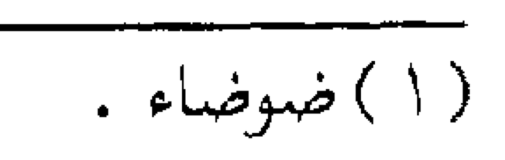
هل تذكرونَ ماذا قالَ قيصرُ الرومِ بعد أنْ ظلَّ يسألُ ويستفسرُ لقد قالَ لأبِى سفيانَ بالنصِّ : « إن كانَ ماتقولُهُ حقًا فسيملكُ موضعَ قدميَّ هاتينِ » !

وقالَ طفلٌ آخرُ : نعم ومنذُ ذلكَ الحِينِ وهو يتابعُ أخبارَ انتصارِ الإسلامِ فى الجزيرة العربيةِ .

ـ وقالَتْ طفلةٌ لاتتجاوزُ العاشرةَ :

لاتنسَوْا غزوة « مُؤْتَة » التى أيقنَ فيها الرومانَ أنَّ الجنودَ المسلمينَ قوةٌ لا يُستهانُ بها . . فأرسلُوا العيونَ واتصلُوا ببعضِ المنافقينَ . . ليمدُّوهُم بأخبارِ رسولِنا الكريمِ .

ـ وأجابَ أكبرهُم قائلاً :



(١) ضوضاء .

نعم . . نعم . . ولايجبُ أنْ ننسَى أنَّ أبا عـامِرٍ الراهبَ لم يُطِقْ البقـاءَ فى المدينةِ بعـد أَنْ ظهرَ فيهـا أمـرُ رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليـهِ وسلمَ فـذهبَ إلى قيصرَ ملكِ الـرومِ يستنجدُ به . . فـوعدَهُ قيصرُ ومنَّاهُ وأعطاهُ إقامةً . . فأرسلَ إلى جماعةٍ من قومهِ فى المدينةِ من أهلِ النفاقِ يَعِدُهُم بأنَهُ سيحضُرُ ومعهُ جيشٌ يُقاتِلُ به محمدَاً .

ـ وقالَتْ الطفلةُ الذكيةُ :

ماذا سيفعلُ رسولُ اللهِ لمِواجهَةِ هذا التحدِّى هل سيتركُ الرومانَ يتغلغَلُونَ فى صحراءِ الجزيرة العربيَّـة ثم يحاربُهم ؟ أم سيذهَبُ هو إليهم ؟

وعادَ الأطفالُ إلى منازلِهِم وراحُوا يفكِّـرون فى كلِّ هذه الأمُورِ حتَّى غلبهُم النومْ .

كانَ الوقتُ وقتَ حصادٍ وجمعِ ثمارٍ وكانَ القَيْظُ [١] شديدًا وكانَ المسلمونَ قـد أجهدهُـم كثرةُ الغـزواتِ والسرايا . . كما أنَّ أحـبَّ وقتٍ للـراحةِ هو وقتُ جمعِ الثمارِ . . غير أنَّ رسـولَ اللهِ ـ صلى اللهُ عليهِ وسلم ـ ندبَ [٢] الناسَ للخروجِ وبعـثَ إلى مكة وإلى قبائل العربِ يستنفـرُهُم [٣] . . ثـم خطَـبَ فى الناسِ وهـو بـالمسجِـدِ وحَـضَّ على الجهادِ وأمـر بالصـدقةِ ورغَّـبَ الأغنياءَ وحثَّهُـم على الإنفاقِ لتجهيزِ غيرِ القادرينَ من المقاتلينَ .

---

(١) شدة الحر .　　(٢) طلب منهم .　　(٣) يحفزهم للقتال .

مواقف متناقضـــةٌ



عثمـــانُ بنُ عَفــانَ :

فى المحنِ القــاسيةِ يظهرُ معدِنُ الـرجالِ ، فهذا هــو عثمانُ بنُ عفانَ حين أحسَّ خطَـر الرومانِ وعلمَ أنَّ قتالَ الرُّومِ ليـسَ صدامًا مع قبيلةٍ أو قبيلتينِ بل هو كفاحٌ مع دولةٍ عظمى بسطتْ سلطانَها على عدَّةِ قـاراتٍ وتملكُ من الـرجالِ والعتادِ مـا لايُحصَى . . فتبرعَ عثمانُ لتجهيزِ عشرةِ آلافِ مقـاتلٍ حتـى أنَّ رسولَ الله تعجَـب من كثرةِ ماأنفقَ وقالَ : « اللهُمَّ ارضَ عن عثمانَ فإنى عنه راضٍ » .

أبـو بكـر الصـديقُ :

أدركَ أبو بكرٍ أنَّ الهزيمـةَ التى أصابَتْ المسلمينَ فى غـزوة مُؤْتة لاتزالُ عالقــةً بالأذهانِ وأنَّ المسلمينَ يعلمونَ أنَّ بـلادَ الروم بعيدةٌ عن عاصمةِ المسلمينَ . . مما يجعلُ مراكزَ التموينِ والإمداداتِ أمرًا صعبًا ومُجهـدًا . . وفكَّر أبـو بكـرٍ فى طـريقةٍ يشجـعُ بها النـاسَ فأحضر جميعَ مالِهِ أربعةَ آلافِ درهم وقدَّمها إلى رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ ـ فقالَ له الرسولُ :

ـ هل أبقيتَ لأهلكَ شيئًا ؟

فقالَ أبو بكرٍ فى إيمانٍ :

ـ أبقيتُ لهم اللهَ ورسولَهُ .

عمرُ بنُ الخطَّابِ :

وعندَما رأى عمرُبنُ الخطابِ الفقراءَ الذين انصرفُوا من عند رسولِ اللهِ بعدَ أنْ قالَ لهم « لا أجدُ ماأحملكُم عليهِ » فتولَّوا وأَعْيُنُهُمْ تفِيْضُ مِنَ الدَّمْعِ أَلاَّ يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ فِى سَبِيلِ اللهِ .



تبرَّعَ عمرُ بنصفِ مالِهِ ؟ فقالَ له الرسولُ :

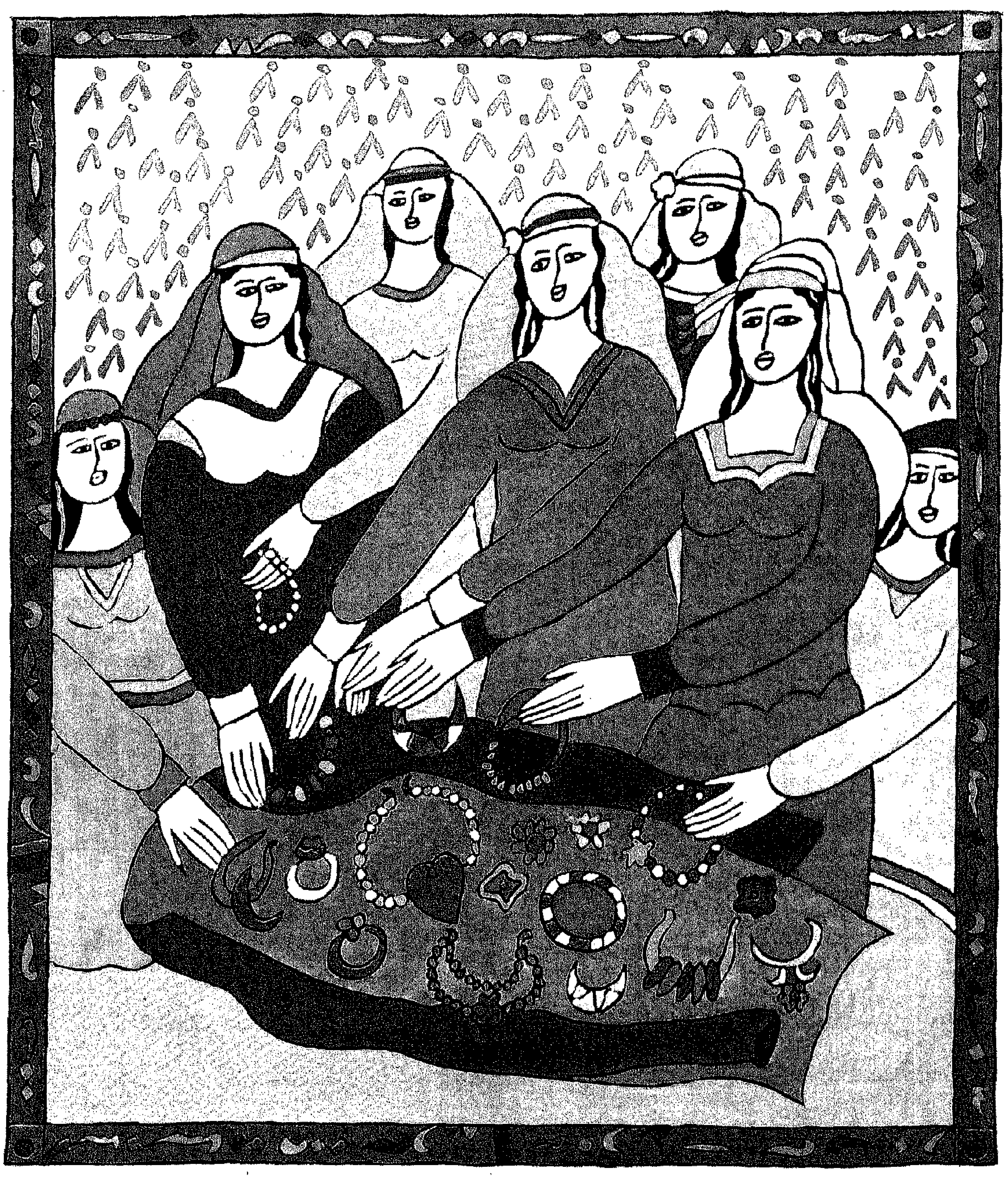
ـ هل أبقيتَ لأهلكَ شيئًا ؟

فقالَ عمرُ : النصفَ الثانِى .

أما نساءُ المسلمينَ فَرُحْنَ يُلقِيْنَ فى ثوبٍ مبسوطٍ أمامَ رسولِ اللهِ كلَّ ما يملكنَ من خواتَيم ، وسلاسلَ وعقودٍ وخلاخيلَ . . كلُّ ذلك من أَجْلِ تجهيزِ الجيشِ الذاهبِ للقاءِ الرومانِ .

موقف المنافقين :

انتحلَ المنافقونَ الأعذارَ عن عدم إمكانهم الاشتراكَ فى هذه الغزوةِ رغمَ أنهم كانُوا أصحاءَ وأغنياءِ وجعلُوا يستأذنونَ رسولَ اللهِ



أما نساء المسلمين فرحن يلقين فى الثوب كل ماعليهن من خواتيم وسلاسل وخلاخيل

فى القعُود فأذِنَ لهم ولكنّه أعرضَ عنهُم فى نفسِه .

ولم يكتف المنـافقونَ بأنْ قعـدوا عن الجهادِ فى سبيـلِ اللهِ ، بل راحُـوا يُثَبِّطونَ الهمَـم ويقـولونَ سـاخريـنَ « أيغـزُو محمدٌ » « بنـى الأصفر » مع جَهْدِ الحالِ [1] والحرِّ والبلدِ البعيدِ ؟!!

أيحسـبُ محمدٌ أنّ قتـالَ بنى الأصفـر كقتـالِ العربِ بعضهِـم بعضًا ؟!!

واللهِ لكأنّكم بأصحابِ محمدٍ غدًا مُسلسلِين فى الحبالِ . . !

انطلق رسـولُ اللهِ صلى اللهِ عليهِ وسلمَ فى الصحـراءِ متجهاً إلى الشمالِ ومعـهُ جيشٌ قـد « ناهـز» [2] الثـلاثينَ ألفًا مـن النـاسِ ، وعشرةِ آلافِ فرسٍ ولم يكنْ الطريقُ سهلاً وإنما كانَ فى زمانِ عسرةٍ وشدةٍ وحرّ فقاسوا الأمرّينِ . . من بُعدِ المسافةِ وشُحِّ المؤونَةِ حتى أنَّ الرجلينِ والثلاثةَ على بعيرٍ واحدٍ . . وأصابهُم العطشُ حتى أنْ جعلُوا ينحـرُونَ إبلَهُم ليفضُّوا أكراشَهَـا ويشرَبُوا ماءهـا . . فكانَ عسرةً فى الماءِ وعسرةً فى النفقةِ وعسَرةً فى المظهر .



فنزلَ قولُ اللهِ تعالى :

﴿ لقد تَابَ اللهُ على النَّبِيِّ والمُهَاجِرِيْنَ وَالأنْصَارِ الَّذِيْنَ اتَّبَعُوْه فِي سَاْعَةِ العُسْرَة ﴾ [3] .

---

(١) تعب . (٢) قارب . (٣) سورة التوبة : ١١٧ .



جيش المسلمين يتجه إلى الشمال

واتجهَ أبو بكرٍ الصديقُ فى حياءٍ شديدٍ إلى رسولِ اللهِ وقالَ له :

ـ ادعُ اللهَ لنا أَنْ ينزِّل لنا المطرَ .

ـ أَوَتُحِبُّ ذلكَ ؟

ـ نعمْ .

فرفعَ صَلى الله عليـهِ وسلمَ يدهُ إلى السماءِ وراحَ يدعـو وقبلَ أنْ تنزلَ يـداهُ تجمَّعتْ السحبُ وهطـلَ المطرُ غـزيرًا فاغتسلُـوا وشربُوا وجمعُوا الماءَ .

وعندما نظَر أبوبكرٍ لاحظ أنَّ المطرَ والسحُب لم تجاوزِ العسكَر فحَمِـدُوا اللهَ كثيرًا ووصلَ صلى اللهُ عليـهِ وسلمَ تَبُـوكَ وسارَ حتـى أدركَ حـدودَ الـروم فلمْ يجدْ أحـدًا مـن العـدوِّ !! فقد آثـر الـرومُ الانسحابَ إلى الداخِلِ ليتحصَّنُوا بحصـونِهمْ حينَ بلغهُم قوةُ هذا الجيشِ . . وأقـامَ صلى الله عليهِ وسلـم بتبُوكَ نحـو عشرينَ ليلـةً حتى اطمئـنَّ إلى عدم نِيَّـةِ الرومـانِ فى قتالـهِ وانتهزَ هـذه الفرصـةَ وأرسلَ السَّرايا إلى مَنْ حولَ تبوكَ مِن نصارَى العربِ التابِعين لدولةِ الرومِ ، فصـالحَ أهلَها على أن يعطـوا الجزيةَ [1] ويدخلُوا فى أمانِ الإسلامِ وعهـدهِ ، ولما كانَ رسولُ اللهِ صلى الله عليـهِ وسلمَ لم يخرجْ إلا للدفاعِ عن المسلمينَ ولم يكُن يريـدُ الحربَ لذاتِها ولايريدُ إرغامِ



(١) قدر من المال يدفعه أهل الذمة للمسلمين .



فتملكهم الرعب وفروا هاربين

الناسِ على دخولِ الإسلامِ بالسيف فقد رجعَ الجيشُ إلى المدينة بعد أنْ أمَّنَ رسولُ اللهِ حُدودَ الدولةِ من ناحيةِ الشمالِ بما عقدهُ من مُعَاهداتٍ .

غـدرٌ مُبيَّتٌ كشفـهُ اللهُ :

وفى طريقِ العودة إلى المدينةِ اجتمعَ نفرٌ من الرجالِ الذينَ كانوا يظهرونَ الإسلام وفى قلوبِهِم كفرٌ وتردُّدٌ ونفاقٌ واتفقُوا على أن يدفعوا رسولَ اللهِ ـ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ ـ عن ناقِتهِ ، عند مرورِهِ بالعقبةِ التى كانت تقعُ بينُ تبوكَ والمدينةِ ولأنَّ المُرورَ بالعقبةِ يجعلُ الإنسانَ مضطرًّا إلى أخذ طريقٍ مظلمٍ ضيقٍ فقد قرروا أنْ يدفعوا رسولَ اللهِ من فوق ناقتهِ إلى الوادى ثم ينقضُّوا عليهِ ليقتلوهُ . .

وفى الطريق أخبر اللهُ رسولَهُ الأمينَ بهذه النِّيةِ . . فماذا فعل النبىُّ ؟؟

أمر رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ ـ وسلم ـ أنْ ينادِى المنادِى :

ـ إنّ رسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلمَ يريدُ أن يسلك العقبة ، فلا يسلكها أحدٌ ، واسلكوا بطنَ الوادِى ، فإنهُ أسلكُ لكُم وأوسعُ .

فسارَ الناسُ فى بطنِ الوادِى ، وسارَ رسولُ صلىَّ اللهُ عليهِ وسلَّمَ فِى العقبةِ وكانتْ شدِيدةَ الظُّلمةِ ، ولاحظَ رسولُ اللهِ أَنَّ

رجلينِ مِن أصحابِهِ يسيرانِ معهُ أَحدُهُما أَمامَه والآخرُ خلفَهُ . . وبعدَ قليلٍ جاءِ رجالٌ ملثَّمون يخْفُونَ وجوههُم وبدءوا الاقترابْ مِن سَيِّدِ الخلقِ فى حَذَرٍ وحيطةٍ وفجأةً صرخَ فِيهِم رسولُ اللهِ . . فتملكهمْ الرعبُ وفرُّوا هاربينَ واختلطُوا بالناسِ الذين كانوا يسيرون فى الوادِى الوَاْسِعِ !

وبعدَ أن مرَّ رسولُ اللهِ من العقبةِ أَمَرَ بإحضارِهِمْ وأخبرَهم بما قالوا وعزمُوا عليهِ فتلعَثمُوا وراحُوا يحلِفونَ أغلظَ الأيمانات ، ما قالوا وما أرادُوا قتلَهُ .

فعفاعنهمُ ورفضَ أنْ يَقتلَهم وقالَ :

ـ « أكرهُ أنْ يتحدَّثَ الناسُ أَنَّ محمدًا يقتلُ أصحابَهُ » .



ثم دخلَ حزينًا إلى عَرِيشهِ [1] فنزلَ قولُ الحقِّ تبارك وتعالى فى سورة التوبة :

﴿ ياأَيُّهَا النَّبِىُّ جَاهِد الكُفَّارَ وَالمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيهِم وَمَأْوَاهُم جَهَنَّمُ وبئسَ المَصيرُ * يَحْلِفُونَ بِاللهِ مَاقَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا ﴾ [2] .

وبعد ذلك توجَّه جيشُ المسلمينَ إلى المدينَةِ وعندما اقتربُوا خرجَ الناسُ للقاءِ رسولِهِم الكريمِ والاطمئنانِ على أهلِهِم وذوِيهِم وخرجَ معهم الصبيانُ والنساءُ وعندمَا علِمُوا أن المسلمينَ بخيرٍ

---

(١) خيمة من الخشب ويُظَلل عليها .

(٢) سورة التوبة : ٧٣ ـ ٧٤ .



وبعد ذلك توجه جيش المسلمين إلى المدينة وعندما اقتربوا خرج الناس للقائهم

صعدَتْ الفتيات إلى أسطُحِ المنازِلِ ورُحْـنَ ـ يُنْشِدْنَ ويغنينَ فرحًا بِعودَةِ رسولِ اللهِ ـ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ ـ .

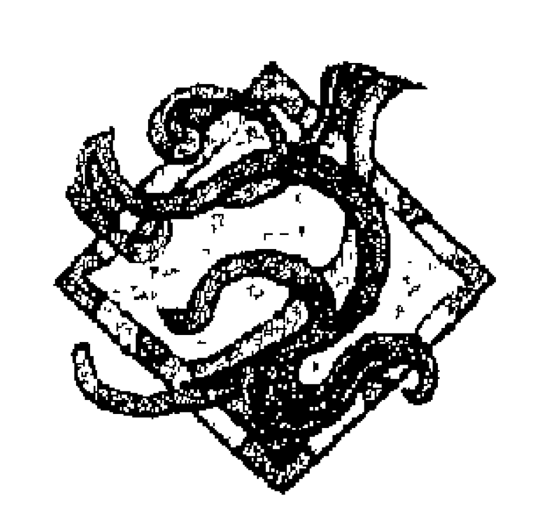
المخَلَّفُـــون :

لما دخلَ رسولُ اللهِ ـ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ـ المدينةَ بدأ بالمسجدِ فصلَّى ركعتينِ شكرًا للهِ وحمدًا على مـا وصلتْ إليهِ مكـانةُ المسلمينَ وَهَيْبَتُهم فى صدورِ النـاسِ حتى أَنَّهم باتوا يخشونَ مـلاقَاةِ المقاتلِيْنَ المسلمينَ ، ثم جلسَ قليـلاً ولاحظَ أَنَّ المنافقينَ الذيـنَ تخلفُوا عن غـزوةِ تبوكَ يتسَرَّبُـونَ دَاخـلَ المسجدِ يقـدِّمُـونَ خطـوةً ويرجعـونَ خُطُوَاتٍ فدعاهـم رسولُ اللهِ . . فراحوا يَعْتَذِرُونَ إليه ويحلفونَ لَهُ ، وكـانـوا بضعةً وثمانينَ رجـلاً فقبـلَ منهـم رسولُ اللهِ عـلانيتهُـم ، وبايَعَهم واستغفر لهُم ووكَل سرائِرهَمُ [1] إلَى اللهِ ثُمَّ جاءَهُ « كعبُ بنُ مالكَ » وسلَّمَ على رَسُولِ اللهِ وقلبُهُ يَخْفِقُ . .

فتبسَّم لهُ الرسولُ الكريمُ تَبَسُّمَ المغْضَبِ وقالَ لهُ :

ـ مَاْخَلَّفَكَ ؟ ألم تكنْ قد اشتريتَ ما تركبُ عليهِ ؟

ـ واللهِ يَاْرَسـولَ اللهِ ما كانَ لِي عُذْرٌ ، وكنتُ قـويًا ميسرًا ولكنِي تخلفتُ . . ولا أُحِبُّ الكـذبَ على اللهِ وعلى رسولِهِ . . ثم طـأطأَ رأسَهُ خجلاً وحياءً من اللهِ ورسوله .



---

(١) داخل أنفسهم وضمائرهم .

فقال صلى اللهُ عليهِ وسلمَ :

أما هذا فقد صدقَ ، فَقُمْ حتى يقضىَ اللهُ فِيْكَ .

ثم جاءَ اثنانِ صادقانِ وقالا مِثـلَ ما قالَ كَعْبٌ . . فأمر رَسولُ اللهِ الناسَ ألا يكلِّمُوا هَؤلاَءِ الثلاثةَ ، حتى يقضِى اللهُ فِيهِم .

ولم يكلِّمْهُم الناسُ خمسينَ ليلةَ . . حتى ضـاقَتْ عليهمُ الدنيا واشتد كربُهم وأظلمت المدينةُ فى وُجُـوْهِهِم . . فنزلَ قولُ اللهِ تعالى فى سورةِ التوبةِ :

﴿ **وعلى الثلاثةِ الذينَ خُلِّفُـوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَاْ رَحُبَتْ وَضَاْقَتْ عَلَيْهِم أَنْفُسُهُم وَظَنُّوا أَنْ لاَمَلْجَأَ مِنَ اللهِ إِلاَّ إِلَيهِ ثُمَّ تَاْبَ عليهم لِيَتُوبُوا إِنَّ اللهَ هُوَ التَّوَّابُ الرحيمُ** ﴾ [1] .



ولمَاَ عَلِمَ الناسُ بهذِهِ الآياتِ ذَهبُوا إليهِم وأخبروهُم بما نزلَ فيهِم من القرآنِ وبشروهُم بعفوِ اللهِ ورسولِه فسجدُوا للهِ شكرًا .

مَسْــجِدُ الضِّــرَاْرِ :

قَبْلَ سفـرِ رسُول اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ إلى تبـوكَ . . . ذهبَ وفدٌ مِـنَ المتظاهـرينَ بـالإسلامِ يُخبِرونَ رسُـولَ اللهِ بِمَا يعزمُـونَ على إقامتِهِ مِن مسجدٍ للعبادةِ والتجمعِ على ذِكرِ اللهِ . . ومكانٍ لِذَوِى

(١) التوبة ١١٨ .

الحاجاتِ ومأْوَىً فى الليلةِ المطيرةِ وقالوا لهُ :

ـ هلاَّ أتيتَ إلينا لِتصلِّيَ معنا فيه ؟

فاعتذَر رسولُ اللهِ لأَنَّه على مشارِفِ سفرٍ وقال لهم :

ـ لَوْ قَدِمْنَاْ ـ إِنْ شَاْءَ اللهُ ـ أتيناكُم ، فصلينا لَكُم فِيه .

فلما قَدِمَ رسولُ اللهِ ـ صلى اللهُ علَيْـهِ وسلمَ ـ إِلَى المدينةِ . . وراحَ ينظرُ فى أَمْرِ المتخلفينَ عَـنِ الجِهَاْدِ . . نزلَ قولُ اللهِ تعَـالِي فِي سورةِ التوبةِ :

﴿ **والذيـنَ اتخذوا مَسْجدًا ضِرَارًا [١] وَكُفْراً وَتَفْـريقاً بين المؤمنينَ وإِرْصَاداً [٢] لِمَنْ حَارَبَ اللهَ ورسولَهُ مِـنْ قَبْلُ ، وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ الحُسْنَى ، وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّهُم لكَاذِبُونَ ، لا تَقُـمْ فِيْهِ أبدًا ، لَـمسْجِدٌ أُسِّسَ على التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يوم أَحَقُّ أَنْ تقُوْمَ فِيه** ﴾ [٣] .



وفى الحالِ أرسـلَ رسـولُ اللهِ اثنينِ مـن أَصحــابِـهِ إِلى المسجـدِ يحمِلانِ الشُّعَـلَ الحارقةَ وأمرهما أَنْ يحرِقـوهُ ويهدِ موه عَيانًـا . فقفزَ المنافقـونَ مذعوريـن من شدةِ اللَّهَـبِ ونظرَ أهلُ المدينـةِ إِلى انهيار آخرِ مابنى المنافقوَن فى المدينة .

---

(١) أقامه المنافقون ليكيدوا فيه للمسلمين .

(٢) ترصدًا لقدوم أعداء الإسلام من الروم .

(٣) التوبة : ١٠٧ .

بـــــراءة :

اجتمـعَ أبنَاءُ المدينـةِ فى المسجـدِ بعـدَ صلاةِ المغـربِ وراحُـوا يتحدثُونَ :

قالتْ فتاةٌ صغيرةٌ لم تتجاوزْ الحاديةَ عشرَ :

ـ إنَّ أَيامَ الحَجِّ اقتربَتْ وأنا أتعجُب وأسأَلُ . . أَيجوزُ أَنْ يطوفَ المسلمونَ مع المشركين مَع العِلْمِ بِـأَنَّ المشركينَ يطوفونَ حَوْلَ الكعبةِ عَرَايَا مِن ملابِسِهم وهذَا لايتفِقُ وَالإسلامَ ؟

ـ فقالتْ طفلةٌ أُخْرَى :

ـ وأنا كذلكَ لا أعرفُ كيفَ سيطـوفونَ وعَوْرَاتُهم مَكْشُوفَةٌ وهم يصفِّرونَ ويصفِّقـونَ . . بينَما المسلمونَ يقـولونَ لَبَّيْـكَ اللهُمَّ لَبَّيْـكَ ويدعونَ اللهَ فى أَدَبٍ وخشوعٍ ؟



وعندَئِذٍ قال فتىً جاوزَ الرابعةَ عشرَ لِكَبِيرِهِم :

ـ نعمْ كيفَ سيحدثُ هذا الهرجُ ؟ كما أَنَّ المسلمينَ مُوحِّدُونَ للهِ والمشركينَ من العربِ القادمينَ إلى مكةَ فى موسمِ الحجِ يشركون مع الله غيره ستتضاربُ العقائدُ حتماً ! !

قال كَبيرُ الأبناءِ وقدْ اشتركَ مَعَ رسولِ اللهِ فِى بعضِ الغزواتِ :

ـــ إنـى فى الحقيقـةِ أتعجـبُ مِثلكُـم . . بـل وأعلـم أَنَّ هـذهِ العنـاصرَ المشرِكَةَ معـاديةٌ لـلإسلامِ وأَهْلِـهِ ، وهى لا شَـكَّ تَتَحَيَّنُ



اجتمع أبناء المدينة فى المسجد بعد صلاة المغرب .. وراحوا يتحدثون

الفرصةَ لإثارةِ الفِتَنِ والبلبلةِ فى نفُوسِ المسلمينَ الجُددِ لِتردَّهُم عن دينِهم إنْ استَطَاعُوا . . فَبَقَاءُ هذهِ العناصرِ فى الدولةِ الإسلاميةِ غيرُ مَأمُونِ العاقِبةِ .

وعندَئِذ قَالَتْ صُغْرى الفَتيَاتِ :

لماذا يسكتُ رسولُ اللهِ على هذَا ؟ ! بلْ ويغفر لَهُم ويسامِحُهم دَائِماً ؟ !

لماذا لايحدِّدُ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ موقفهُ مِنَ المشركينَ فى جزيرةِ العربِ ؟

وَظَلَّ أبناءُ المدينةِ يتكلمُونَ مع أَهلِيهم فى هذا الشأنِ وكلُّهم خوفٌ على دولةِ الاسلامِ الوليدةِ من أَىِّ محاولاتٍ جديدةٍ للقضاءِ عليها .

حَجُّ أَبِى بَكْرٍ :

بعثَ رسولُ اللهِ أبا بكرٍ أميراً على الحجِّ ليُقِيمَ بالمسلمينَ المناسِكَ فخرجَ أبو بكرٍ بالحجيجِ مُولِّيًا وجهَهُ إلى المسجدِ الحرامِ ، وبعدَ يوم أو يومينِ . . نزلَ سيدُنا جبريلُ بسورةِ بَرَاءَة والَّتِى حدَّدَ فيها موقفَ المسلمينَ من بقايا المشركينَ فى جزيرةِ العربِ ووضعَ الحدَّ الفاصلَ بينهَما .

﴿ براءةٌ مِـنَ اللهِ ورَسُولِـهِ إلى الذيـنَ عَاْهَـدْتُم مـن المشركينَ * فَسيحُوا فى الأرْضِ أَرْبَعَةَ أشهُرٍ واعلمُوا أنَّكُم غيـرُ مُعْجزِى اللهِ وَأَنَّ اللهَ مُخْزِى الكافـرِينَ * وَأَذَانٌ مِـنَ اللهِ ورسُولـهِ إلى النَّاسِ يَـوْمَ الحجِّ الأكبرِ أنَّ اللهَ برىءٌ من المشركينَ ورسوُلُهُ ﴾ (١) .

وفى الحالِ بعثَ رسولُ اللهِ بهذهِ الآيـاتِ مَعَ علىٍّ بنِ أَبِى طـالبٍ ليلحقَ بأَبِى بَكْرٍ الصديق لِيُعْلنهَا على النَّاسِ يَوْمَ الحَجِّ الأكْبَرِ .



أبنــاءُ مكــةُ :

ذهب أبنـاءُ مكةَ من الصبيـانِ والفتياتِ إلى مناسـكِ الحجّ مع آبائِهم وأمهاتِهم ولما كان يومُ النَّحرِ « أىْ الذَّبحِ » وهو يومٌ حافلٌ فى مِنـىً حيـث يجتمعُ الحجيـجُ مـن كـلِّ فَـجٍ . . ويتلاقـى النـاسُ ويتشَاورُونَ فى أمورِ دينهِـم ودنيَاهُم . . وقفَ أبُو بكـرٍ يَتْلُو آياتِ سورةِ براءةٍ والناسُ يستمعونَ ويكبرونَ ويهلِّلونَ لأنَّ هذهِ الآياتِ قد حسمت موقفَ الإسلامِ من الشِّركِ . .

وفى المساءِ اجتمعَ أبناءُ مكةَ حولَ نارٍ أوقدوهَا وراحُوا يتسامرونَ وكلُّهم رغبةٌ فى الحديثِ عَنْ آياتِ سورةِ براءةٍ .

قالَ صبىٌّ لم يتجاوزْ العاشرةَ :

---

(١) التوبة : ١ ـ ٣ .



وفى المساء اجتمع أبناء مكة حول نار أوقدوها

إنَّ أبناءَ مكــة يسيرونَ فى الشوراع يـرددونَ قولَ رســولِ الله لعلىّ ابنِ أبى طالبٍ .

« لايدخلُ الجنَّةَ كافرٌ »

« ولايحجُّ بعد العام مشركٌ »

« ولايطوفٌ بالبيتِ عُريانٌ »

« ومَن كَانَ لهُ عهدٌ عند رسولِ اللهِ فهو إلى مدتِه »

ـ قال شابٌ قد حضرَ بعضَ الغزواتَ :

نعم كانَ لابدَّ من أجلِ تحقيق أمن الدولةِ أن يتحدَّدَ موقفُها مِن هذهِ العناصرِ التّى لم تدخل الإسلامَ بلْ وتتربصُ بِه الدوائِرَ . فلابدَّ من قتالهِم أو إخراجِهم من بيننا .



ـ وقال صبى آخر :

لذلك قالَ اللهُ تعالىَ فِى سورةِ براءةٍ :

﴿ أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ؟ أَتَخْشَوْنَهُمْ ؟ فَاللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِيْنَ﴾(١) .

ـ وقالت فتاةٌ ذكيةٌ كانت تحُسنُ الاستماعَ :

---

(١) سورة التوبة : ١٣ .

بل لقد أمرَنا اللهُ فى سورةِ براءةٍ بقتالهم صَراحةً فقالَ تَعالى :

﴿ قَاْتِلُوهُم يُعذِّبْهُم اللهُ بَأَيْدِيْكُم ، وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمَ عَلَيْهِم ، وَيَشْفِ صُدُوْرَ قَوْمٍ مُؤْمِنِيْنَ . . وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوْبِهِمْ ﴾[1] .

ـ وقالَ أحدُ فتيانِ مكةَ :

الأهمُّ مِن ذلكَ أنّ المشركين لن يعمرُوا بيتَ اللهِ ، ولقد قالَ تعالى :

﴿ مَا كَانَ للمشركينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاْجِدَ اللهِ شَاْهِدِيْنَ عَلَى أَنْفُسِهِم بِالْكُفْرِ ، أُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَاْلُهُمْ وفِى النَّاْرِهُمْ خَاْلِدُوْنَ ﴾[2] .



ـ وقالت طِفلةٌ صغيرةٌ لم تتجاوز التاسعةَ :

لقدْ سمعتُ أبا بكر الصديقَ وهو يتلُو الآياتِ وَكنتُ أحاولُ حفظها ولكن عِندما علمتُ قولَ اللهِ تعالى :

﴿ ياأيُّها الذينَ آمنوا إنَّما المشركونَ نَجَسٌ فلا يَقْرَبُوا المسجدَ الحرامَ بَعْدَ عَامِهِم هَذَا ﴾[3] حفظتُها وظللتُ أكررهَا حتى أُسمعَهَا لكم .

---

(١) سورة التوبة : ١٤

(٢) سورة التوبة : ١٧ .

(٣) سورة التوبة : ٢٨ .

ـ وقالَ صبيٌّ أسودُ اللونِ من أبناءِ العبيدِ الذينَ أسلمَوا وأَعتقهُم رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ :

لقد بلغَ من نقاءِ الإسلامِ ورحمتهِ أنَّهُ لم يأخذ المشركينَ فجأةً وينقضَّ عليهم ويقتلهُم ويكونُ ذلكَ غدرًا وهم غافلونَ ! بل لقد أنذرهُم علانيةً وأعطاهُم مُهلةً كافيةً . . أربعةَ أشهر يسيحونَ فِى مكة يُلملمونَ أشياءهُم ويدبِّرونَ أحوَالهم ويُصَفُّونَ تجارتَهُم فهذا هو العدلُ مع الأعداءِ والرحمةُ والأمانةُ مع الخصُومِ .

فقالَ تعالى :

﴿ بَرَاْءَةٌ مِنَ اللهِ ورَسُولِهِ إلى الَّذِيْنَ عَاْهَدْتُمْ منَ المُشْرِكِيْنَ ، فَسِيْحُوا فى الأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشهُرٍ ﴾ (١) .



وسألت طفلةٌ صغيرةٌ :

« لم أفهم معنى الآية التى تقول » :

﴿ قَاْتِلُوا الَّذِيْنَ لا يَؤْمِنُوْنَ بـاللهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخرِ ولا يُحَرِّمُوْنَ مَاْ حَرَّمَ اللهُ وَرَسُوْلُهُ وَلايدِيْنُوْنَ دِيْنَ الحَقِّ مِنَ الَّذِيْنَ أُوْتُوا الكِتَاْبَ حَتَّى يُعْطُوا الجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاْغِرُوْنَ ﴾ (٢) .

مامعنَى الجزيَهُ ؟

---

(١) التوبة : ١ ـ ٢ . (٢) التوبة : ٢٩ .

قالَ أكبرهُم سنًا :

الجزيةُ [1] هى ضريبةٌ ماليةٌ يدفعُها أهلُ الكتابِ مِنَ النصارَى أو اليهودِ إذا كانوا يعيشونَ فى دولةٍ إسلاميةٍ فى أمانٍ ولايحاولونَ الخيانةَ أو الغدرَ ولكنَّهم لايُشاركون فى الدفاعِ عن الدولةِ فى حالةِ الحربِ ويقومُ المسلمونَ بالدفاعِ عن الدولةِ وحدَهم ومتى أعطُوا الجزيةَ وَجَبَ على المسلمينَ تأمينُهم وحمايتُهم والدفاعُ عنهُم ، ومعاملَتهُم بالعدلِ والمساواةِ .

قالت فتاةٌ ناضجةٌ :

إنّ نبينا الكريمَ . . قَال : « من عادى لى ذِمِّيًّا فقد آذنتُه بحربٍ منى »

وقال أيضًا :

« من عادى لى ذِمِّيًّا فأنا خصيمُهُ يوم القيامةِ » فلا يجبُ أن نظلمَ أهلَ الكتابِ [2] فى ديارِ الإسلام ولانرهقُهم ولانكلِّفهم ما لايطِيقونَ ومن يفعل ذلك يحاربهُ رسولُنا الكريم ويكونُ خصمه فى الدنيا والآخرةِ .



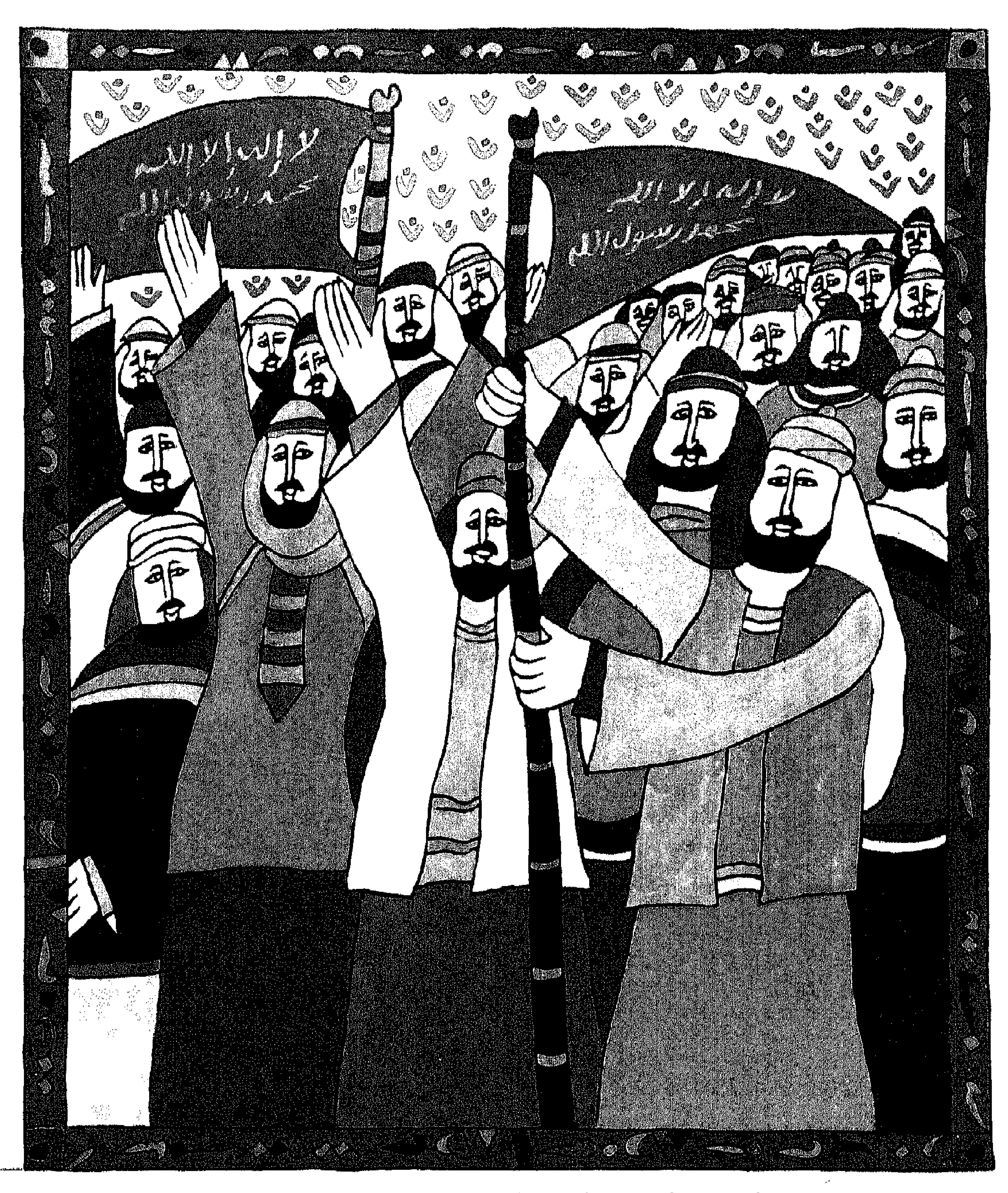
---

(١) قيمة الجزية هى : ديناران للأغنياء ودينار لأوساط الناس ونصف دينار للعمال وليس على الفقراء ولا النساء والأطفال شيء .

(٢) أهل الكتب السماوية من اليهود او النصارى .



قالت فتاة ناضجة : إن نبينا الكريم قال : من عادى ذميا فقد أذنته بحرب منى



أقبلت الوفود من هؤلاء وهؤلاء .... تعلن خضوعها للإسلام .

حَجَّـةُ الـوَدَاعِ



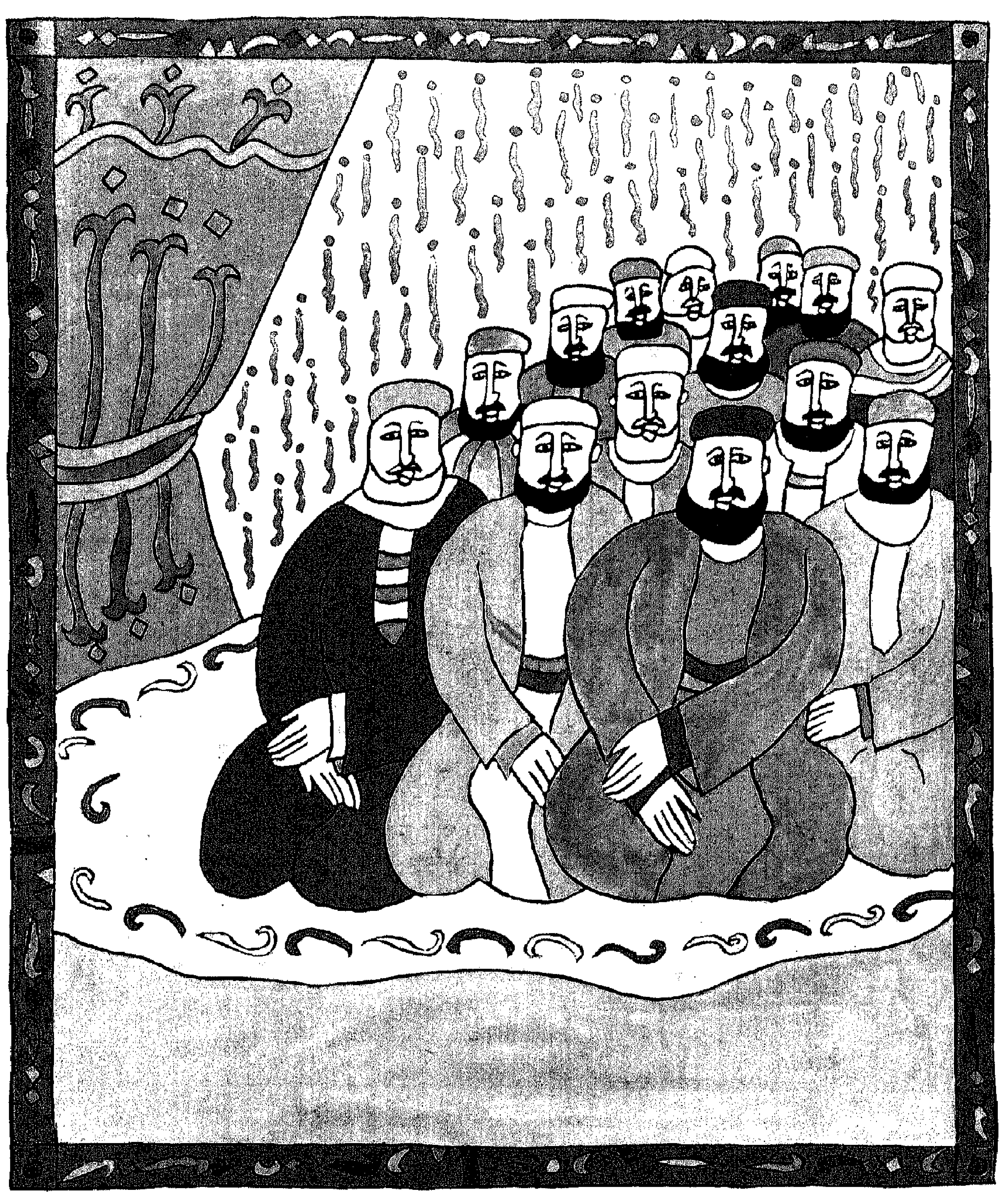
كانَ للصيحَةِ التى نادى بها علىٌّ بنُ أَبى طالبٍ يومَ الحجِّ الأَكبرِ أَثَـرهُـا العميقُ فى بقَـايَـا المشركينَ مـن العربِ . . كما شعـرَ أَهـلُ الكتـابِ من نصـارى العربِ أَنَّ مـن الخيرِ لهم أَن يستظلُّـوا برايـةِ الإِسلامِ ويحتُموا بِحِماهُ . . فأَقبلتِ الوفـودُ من هؤلاءِ وهؤلاءِ تعلنُ خضوعَها للإسلامِ ودخولها تحتَ رايتِـه فأَمَّا المشركونَ فقد دخلوا فى الإسلامِ . . وأَما أَهْلُ الكتابِ فمنهُم من أَسلمَ ومنهم من بقى على دينِهِ ورضىَ أَنْ يدفعَ الجزيةَ فدخلَ فى أَمانِ المسلمينَ وحمايتِهم .

ولقد أحسنَ رسولُ اللهِ استقبالَ جميعِ الوفودِ وتلطَّف معهُم وقد فرشَ عباءَتـهُ لنصارَى نجرَانَ [1] وطلبَ منهُم الجلـوسَ عليها . . وكانَ يزورُ مرضاهُم ويشيِّعُ جِنـازتَهُم ولقد حاولَ بكلِّ الوسائلِ أن يقوِّم من طَبائِعِهم ويمَلأَ نفوسَهُم بأسمَى الأخلاقِ التى تُساعِدُهُم على العَيشِ مع المسلمينَ فى أمانٍ وسلامٍ ومحبَّةٍ .

وهكذا انقضـتْ السنةُ العـاشرةُ فى استقبالِ الـوفودِ وأَنـزلَ اللهُ سورةُ النصر: بسمِ اللهِ الرحمنِ الرحيمِ . . إذا جاءَ نصرُ اللهِ والفتحُ ،



(١) النصارى من أهل اليمن .



أحسن رسول الله إستقبال جميع الوفود .. وفرش عباءته لنصارى نجران

ورأيتَ الناسَ يدخلونَ فى دينِ اللهِ أفواجًا . . فسبِّحْ بحمدِ ربِّكَ واستغْفِرْهُ إنَّهُ كانَ توَّابًا .

حَجَّةُ الـوَدَاعِ :

علِمتْ القبائِلُ أنَّ رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ خارجٌ إلى مكة ليؤَدِّى فريضةَ الحجِّ ، فأقبلتِ الوفودُ على المدينةِ أفواجًا أفواجا حتى أنَّ عددَ الخيامِ التى ضُرِبَتْ حولَ المدينةِ تجاوزتِ المائةَ ألفٍ كلُّهم فِى شوقٍ للحجِّ مع رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ .

وركبَ رسولُ اللهِ ناقتَهُ ، فلمَّا استوى عليها وهمَّتْ بهِ أهلَّ مُلبِّيًا : « لبَّيكَ اللهُمَّ لبَّيْكَ . . لبيكَ لا شريكَ لك لبَّيْك . . إنّ الحمدَ والنِّعمةَ لك والمُلكَ . . لا شَريكَ لك » وانطلقَ الحجيجُ يُلبُّونَ من خلفهِ . . وأصداءُ أصواتهم تدوِّى فى الفضاءِ وكأنَّ الكونَ كلَّه يلبِّى للهِ ربِّ العالمينَ .



ولَمَّا دخلَ رسولُ اللهِ صلى عليهِ وسلمَ مكةَ نهارًا ووقع بصرُهُ على البيتِ الحرامِ قالَ :

« اللهُمَّ زِدْ هذا البيتَ تشريفًا وتعظيماً ومهابَةً . . وزِدْ مَنْ عظَّمَه ممَّنْ حجَّهُ واعتمَرهُ ـ تشريفًا وتعظيماً وتكريماً ومهابةً وبرًا .

ولَمَّا دخلَ المسجدَ طافَ بالبيتِ سبعًا ثم انتهى فصلى ركعتينِ فى مقامِ إبراهيمَ ، ثم خرَج فسعَى بين الصَّفَا والمروَةَ سبعًا فلمَّا انتهَى ، أمرَ من لمْ يَسُقِ الهَدْىَ من المسلمينَ أنْ يتحلَّلَ من إحرامِهِ



فأقبلت الوفود .. أفواجًا .. أفواجًا



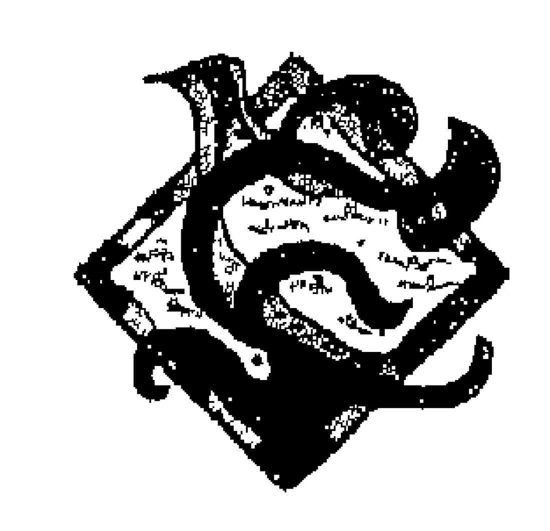
وكان ربيعة ابن أمية بن خلف واقفا تحت صدر الناقة

إلى التَّروِيَةِ [1] وهو اليومُ الثامِنِ من ذى الحِجَّةِ ، ثم أَهلَّ [2] بالحجِّ من ذلك اليومِ عند الخروجِ إلى مِنَى .

باتَ رسولُ اللهِ فِى مِنَىً ثم أَصبحَ فصلَّى بها الصبحَ ثم سارَ إلى عرفةَ ، وحين رأى الشمسَ قد طلعتْ وصارَ ببطنِ عرفةَ وقفَ على راحلتهِ فخطبَ الناسَ خطبةَ الوَدَاْعِ .

وكانَ الرجالُ والنساءُ والصبيانُ والفتياتُ يتابعونَ رسولَ اللهِ حركةً بحركة .

وكانَ « ربيعَةُ بنُ أُميَّةَ بنُ خلفٍ » واقفًا تحتَ صدرِ الناقةِ ، وكانَ جهيرَ الصوتِ ، كلما قالَ رسولُ اللهِ كلمةً صرخَ بها ربيعةُ فى الناسِ حتى يسمعَ الجميعُ وراحَ الناسُ يردِّدُونَ كلَّ مايسمعونَ .



فلما انتهى رسولُ اللهِ من خطبتهِ أمر بلالاً فأَذَّنَ للصلاةِ ، وجمعَ رسولُ اللهِ بينَ الظهرِ والعصرِ جَمْعَ تقْدِيمٍ وظلَّ يدعُو ويستغفرُ حتى غابت الشمسُ ثم أفاضَ من عرفاتٍ إلى مُزْدَلفةَ [3] فجمعَ الحصى وصلى فيها المغربَ والعشاءَ ثم باتَ بها ثم صلى الفجَر ثم ركبَ ناقتَهُ وأَتى «المشْعَرَ الحرامَ»[4] فذكرَ اللهَ كثيرًا « فاذكرُوا اللهَ عند

---

(١) من مناسك وشعائر الحج .

(٢) نادى فى الحج « لاإله إلا الله » ورددوا خلفه .

(٣) مكان بين عرفات ومنى .

(٤) مكان بين مزدلفة ومنى .

المشْعَرِ الحَرامِ » (١) ثم دخلَ مِنَىً وهناكَ استقبلَ العقبةَ الكبرى (٢) ورمى سبع حصياتٍ ثم ذهب إلى المَنحَر فَنَحَرَ بيدِهِ الشريفةِ ثلاثًا وستينَ بدنةً وأمر عليَّ بنَ أبى طالبٍ فنحرَ باقيها .

ثم حلقَ وتطَّيـب وقصَّ أظافِرهُ ولبس ثيابَـهُ . . واستمَّر رسولُ اللهِ يرمِى الجمارَ عند زوالِ الشمسِ فى أيَّامِ التشريق (٣) الثلاثةِ ثم نزلَ مكةَ فودَّعَ البيتَ ثم انصرفَ راجعًا إلى المدينةِ .



اجتماعُ المسجدِ :

عندمَا عَاد الحجاجُ إلى المدينةِ كانَ عددٌ كبيرٌ من الشبابِ والصبيانِ والفتياتِ يتنظرونَ رجوعَ أصدقائهِم من الحجِّ ليقصُّوا عليهِم أخبارَ هذهِ الرِّحلةِ وما قيلَ فيها وعقبَ صلاةِ المغربِ جلسَ أبناءُ المدينةِ فى مسجدِ رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلمَ .

قالَ صغيرهُم وقد بلغَ التاسعَةَ من عمرِهِ :

ـ مشتاقون لمعرفَةِ ماذا حدثَ فى رحلةِ الحجِّ .

قالَ أحدُ الفتيانِ الذينَ تمكنُوا من الحج مع رسولِ اللهِ :

ـ لقد كانَ حجًا عظيماً مع رسولِنا الكريم . . ولقد تعلمنا منهُ المناسكَ كلَّها . . وكانت أيامُ الحجِّ فرصةً ذهبيةً ليتعرفَ المسلمونَ

---

(١) سورة البقر آية ١٩٨ .

(٢) مكان رمى الجمرات وهى ثلاث عقبات الكبرى والوسطى والصغرى .

(٣) أيام التشويق هى اليوم الثانى والثالث والرابع من أيام عيد الأضحى .



وعقب صلاة المغرب جلس أبناء المدينة فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم

بعضهُم البَعض ويعقـدُوا مؤتمراتٍ عديدةً لبحـثِ كيفيَّةِ النهوضِ بالدولَـةِ الإسلاميَّةِ . . ولقد خطبَ رسـولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ خطبةً رائعـةً تحتوى على مجمـوعةٍ مـن الوصـايا حتـى تتقدَّمَ الأمـةُ ولاتتخلَّفَ .

قالَ فيها :

أيُّها الناسُ . . اسمعُوا منِّى أُبيِّنْ لكم . . فإنِّى لا أدرى : لعلِّى لا ألقاكُم بعدَ عامِى هذا بِهذا الموقِفِ أبدًا .

أيُّها الناسُ :

إنَّ دماءكـم وأموالكُمْ وأعـراضَكُم عليكُم حـرامٌ ، إلى أن تلقوا ربَّكُم كحُرمَةِ يومكُم هذا فى شهرِكُم هذا فى بَلَدكُم هذا . . . .



« ألا هـل بلَّغتُ » ؟ قـالَ المسلمُـونَ : نعـم . . قالَ « اللهُـمَّ فاشهَدْ » .

وعندئذٍ تَدخَّلتْ فتاةٌ فى الثَّالثةِ عشرةَ من عمرهَا قائِلةً :

نعم لقـد اقشعرَّت أبدانُنَـا ونحنُ نسمعُ أنَّ الكـلامَ فى أعراضِ النَّاسِ حرامٌ مثـلُ القتلِ ومثلُ السَّرقةِ كحُرمـةِ البيتِ الحرامِ ، ولقد قالَ رسولُ اللهِ فى خُطبَتِهِ :

« لاَ ترجِعُـوا بعدِى كُفَّـارًا يضربُ بعضكُم رقـابَ بعضٍ » ثُـمَّ قالتْ مُتعجِّبَةً :

هـل يُعقَلُ أَنْ يـأتى زمـانٌ على أمَّةِ محمـدٍ يضرِبُ المسلمُ أخـاهُ المسلمَ ؟! يَالَلْهَوْلِ .

وَعَلَّقَ صبىٌّ تجاوزَ الرابعةَ عشرَةَ على كَلامِهَا قائلاً :

نعمْ قد يَحْدُثُ بينَ المسلمينَ فُرْقَةٌ وعَدَاوةٌ لأَنَّ نَبِيَّنَا الكريمَ قال :

« إن الشيطانَ قَدْ يَئِس أَنْ يُعْبَد فى جَزِيرَةِ العَرَبِ ولَكِنْ فى التحريشِ بينَهُم» والتَحْريشُ هو فسادُ ذَاتِ البَيْنِ والإيقاعُ بَيْنَ الناسِ وَهِىَ الحَالِقَةُ لأَنَّ رَسولَنا الكريمَ قال :

إن فسادَ ذاتِ البَينِ هى الحَالِقَةُ . . قَالُوا يَارَسُوْلَ اللهِ أَتَحْلِقُ الرَّأْسَ ؟

قال : لاَ، ولكنَّها تَحْلِقُ الدِّينَ . . هذا الكلامُ قد سبقَ أَنْ تَحدَّثَ عنهُ سَيِّدُ الخلقِ حين قال : إذا الْتَقَى الْمُسْلِمَانِ بِسَيْفَيْهِمَا فالقَاتِلُ والمقتولُ فى النَّارِ .

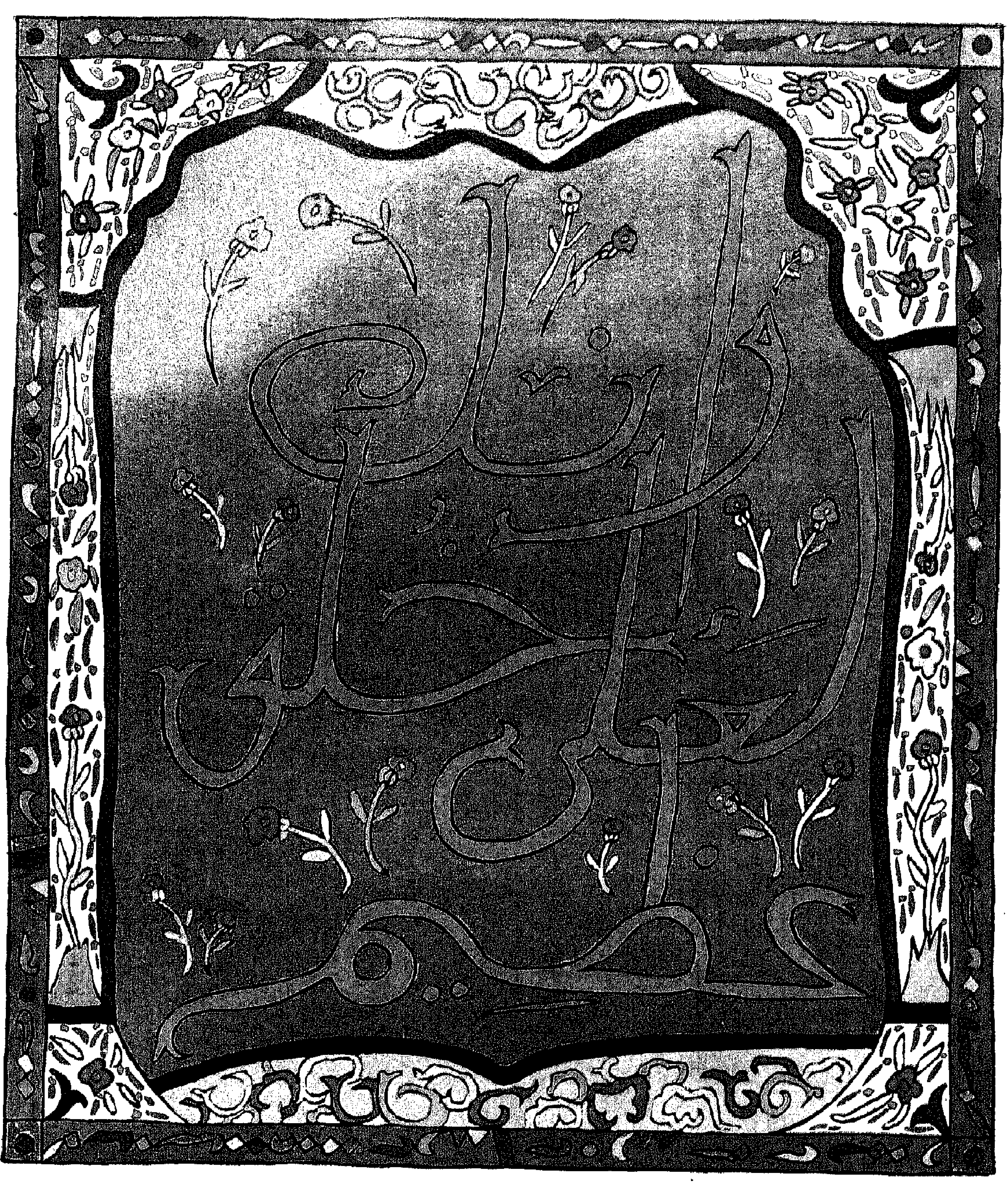
وعادَ الفَتَى الَّذِى حَجَّ مَعَ رَسُولِ اللهِ يُؤَكِّدُ كلامَ الصبَّى فقالَ :

نعم . . نعم . . بل لقد كَرَّر رسولُ اللهِ التحْذِيَر من إيقَاعِ الشَّيْطانِ بين الإِخْوَةِ المسلمينَ فقالَ :

« إِنَّ الشيطانَ قد يَئِسَ أنْ يُعْبَدَ بِأرضِكُمْ هذهِ ، ولكنَّهُ رَضِىَ أَنْ يُطاعَ فِيمَا سوى ذلِكَ مما تَحْقِرُونَهُ من أعمالِكُم فاحْذَرُوهُ على دينكُمْ » .

وقالت فتاةٌ حضرتْ مع رسولِ اللهِ الحَجَّ : ـ

لقد سَعِدْتُ كثيرًا ورسولُ اللهِ صَلى اللهُ عليهِ وسلم . . يكرِّرُ كلمةً : «استَوْصُوا بالنساءِ خيرًا فإنَّهُنَّ عندكُم عَوَانٌ « أى أسيراتٌ »



وانك لعلى خلق عظيم « صدق الله العظيم »

إنما أخذتموهُنَّ بكلماتِ اللهِ فاتَّقُوا اللهَ فى النساءِواستوصوا بهنَّ خيرًا» .

وقالَتْ شابةٌ على وشكِ الزَّواجِ :

لقد سمعتُ رسولَ اللهِ صلى عليهِ وسلمَ يردِّدُ على مسامعِ الرجالِ :

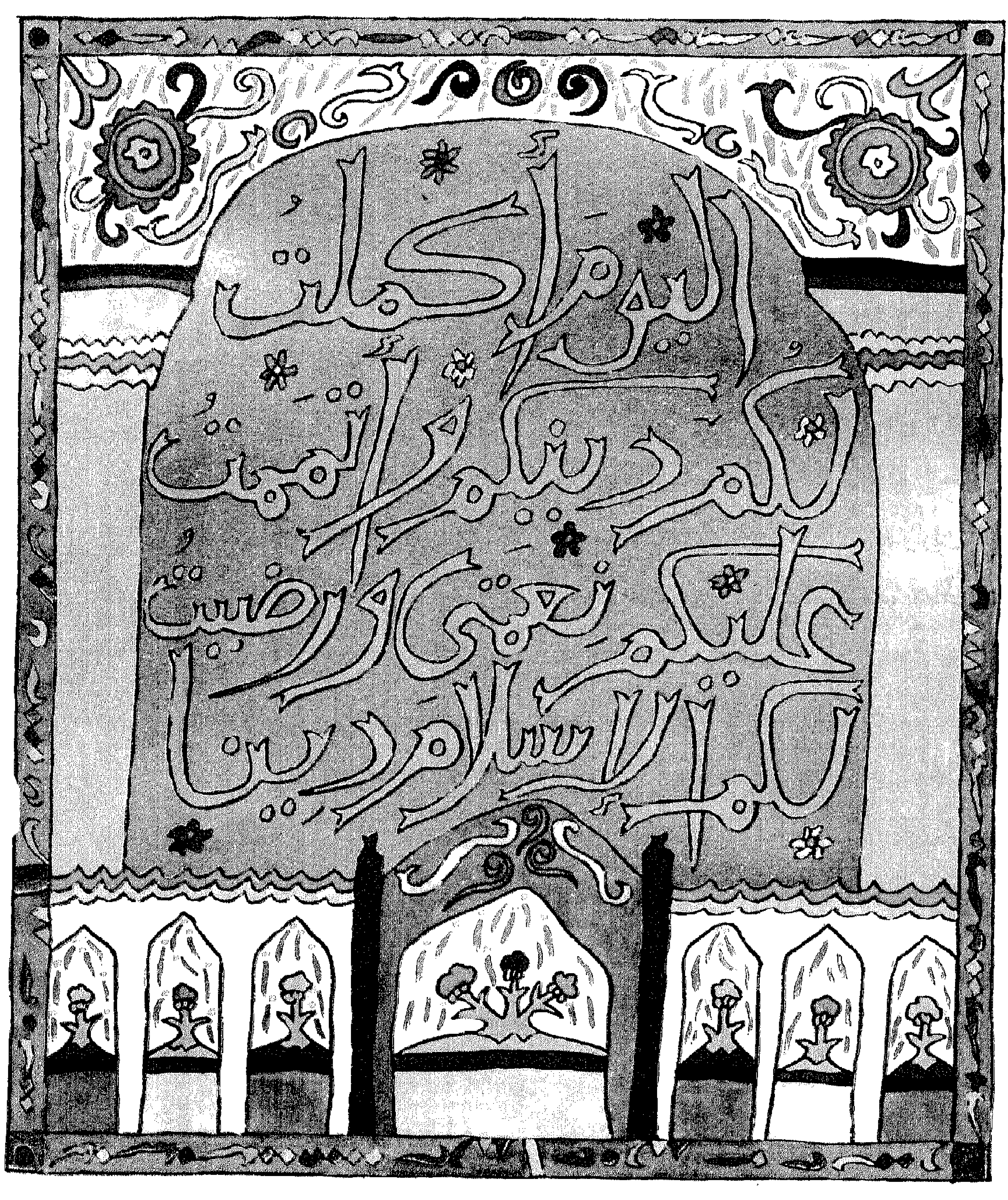
« ما أكرمهُنَّ إلا كريمٌ وما أهانهُنَّ إلا لئيمٌ » .

وفى أثناءِ حديثِ الأبناءِ : أُذِّنَ لصلاةِ العشاءِ . . فقامُوا جميعًا للصَّلاةِ . . واصطفَّ الرجالُ فى الصفُوفِ الأماميةِ والنساءُ والأطفالُ فى الصفوفِ الخلفيةِ .

ولم يحضر سيِّدُ الخلقِ ليؤُمَّهُم كَما تعوَّدوا فانتظرُوا عدةَ لحظاتٍ . . وبعد قليلٍ . . حضر أَبو بكرٍ وأخبرَ المسلمين بأنَّ رسولَ اللهِ مريضٌ بالحُمَّى فخفقَتْ قلوبُ المسلمينَ جميعًا لهذا النبأ الأليم وتمالكُوا أنفسَهُم . . وصلُّوا خلفَ أبى بكر . . ثم عادُوا إلى منازِلِهم والألَمُ يعتصِرُهُم ولكنَّهم لايتكلمُونَ .

الرَّفِيقُ الأَعلَى .

وفى صلاةِ الفجرِ خرَجَ الرِّجالُ والنِّساءُ والأطفالُ إلى المسجِد وكلُّهم شوقٌ للاطمئنانِ على سيِّدِ الخلقِ . . ولكنَّهم فوجِئُوا بعَدَمِ وجودِهِ . . فأصابَهُم الجزَعُ فلمَّا شعرَ رسولُ اللهِ بجزعِهِمْ خرَجَ إليهم متوَكِّئًا على عمِّهِ العباس وابنِ عمهِ عليِّ بنِ أبى طالبِ

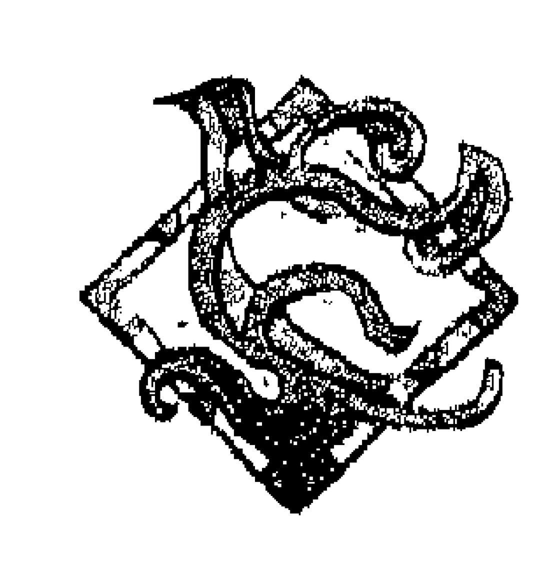


اليوم أكملت لكم دينكم واتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا

وجلسَ بصعُوبَةٍ على أوَّلِ درَجٍ من السُّلم وخطَب قائلاً :

« أيُّها النَّاسُ ، بلغَنى أنَّكُـم تخافُونَ مَوتَ نبِّيكُم !!! هـلْ خُلِّدَ نبيٌ قبلِى فأخلُدَ فيكم ؟ ألاَ إنِّى لاحِقٌ بـربِّى وأنتُم لاحقُونَ بى » ثُمَّ أوْصَـى المهاجرينَ بالأنصارِ وأوصى الأنصارَ بالمهاجرينَ .

ثُـمَّ عادَ إلى حُجْـرَتِه واشتـدَّ عليـهِ المرَضُ وظلَّ عشريـن يومًـا يُمَرَّضُ فى بيـتِ عائشـةَ والحمىَّ تعتصرُهُ اعتصـارًا . . وكانَ أبنـاءُ المدينةِ يلتفُّـونَ حولَ منزلِهِ ويـدعُونَ اللهَ لنبيِّهم ويتطلَّعـونَ لخُرُوجِهِ للمسجدِ . .



وعندمَا علمَ رسولُ اللهِ بمشـاعرِهم تحاملَ على نفسهِ وأراقَ على وجهِـهِ وجسمِهِ الماءَ وخـرجَ حتى جلسَ على المنبرِ وهـوَ عاصـبٌ لـرأسِه مـن شدَّةِ مـايجدُ من الألمِ فصلَّى على أصحـابِ أُحدٍ وأكثـر الصلاةَ واستغفَر لهم ثُمَّ قالَ والعرَقُ يتصبَّبُ منْهُ بغزارةٍ :

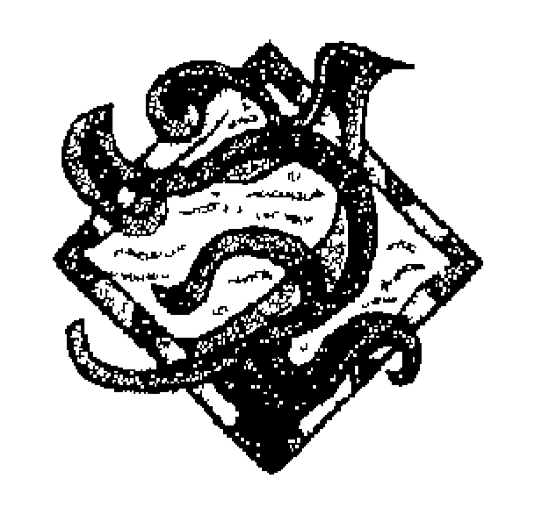
« إنَّ عبدًا من عبادِ اللهِ خيَّرَهُ اللهُ بينَ الدُّنيا وبينَ ما عندهُ فاختارَ ما عندَ اللهِ » .

فبكـىَ أبو بكـرٍ ولم يتمالكْ نفسـهُ فقـالَ رسولُنـا الكريـمُ « على رِسْلِـكَ ياأبـا بكرٍ لاتبْـكِ » . ثُمَّ قـالَ : « أيُّها الناسُ ، إنَّ أأَمَـن الناسِ علىَّ فى صُحبتِه ومالِه أبو بكرٍ ، ولو كنتُ متخذًا من الناسِ خليـلاً لاتَّخذتُ أَبا بكـر خليلاً . . ولكـنْ صحبةٌ وإخـاءٌ وإيمانٌ حتى يجمعَ اللهُ بيننا » .

ثُمَّ عادَ إلى حجرتِهِ . . وقالَ : مُرُوا أَبا بكرٍ فَليُصَلِّ بالناسِ .

ثُمَّ اضَّجَع فى فِراشِهِ واستندَ على عائشةَ ولا حظَتْ عائشةُ أنَّ رسولَ اللهِ يثقلُ فى حِجرِهاْ فنظرَتْ إليهِ فإذا هو شاخِصٌ ببصرِهِ يقولُ « بل الرَّفِيقُ الأَعلَى فى الجنَّةِ » .

وصعدَتْ روحُ خيرِ خلقِ اللهِ كُلِّهِم وخاتمِ النَّبِيِّينَ فى يومِ الإثنينِ لاثنتىْ عشَرةَ ليلةً خَلَتْ من شهرِ ربيعِ الأولِ من السنةِ الحادِيةِ عشرةَ للهجرةِ وعمرُهُ ثلاثٌ وستُّونَ سنةً وغُسِّلَ وكُفِّنَ ثم وُضِعَ على سريرِه ودخلَ الناسُ يصلُّون عليهِ جماعاتٍ يتلو بعضُهم البعضَ ، دخل الرجالُ ثُمَّ النساءُ ثُمَّ الصبيانُ وَدُفِنَ فى نفسِ المكانِ لأنَّ أبا بكرٍ قالَ سمعتُ رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ يقولُ :



«ما قُبِضَ نبىٌّ إلاّ دُفِنَ حيث قُبِضَ » .

وباتَ أبناءُ المدينةِ حولَ قبرِهِ الشريفِ . . يردِّدُون . .

« اللهُمَّ إنَّا نشهدُ أنكَ قد بلَّغتَ الأمانةَ وأدَّيتَ الرِّسالَةَ ونصحتَ الأُمَّةَ وجاهدتَ فى اللهِ حقَّ جهادِهِ حتى أتاكَ اليقينُ »(١) .

فصلواتُ اللهِ وسلامُهُ عليكَ يارسوْلَ اللهِ . .

وعلى آلكَ وأصحابِكَ أجمعِينَ . . وسلامٌ على المرسلينَ والحمدُ للهِ ربِّ العالمينْ . .

---

(١) الموت .

ختـــــام

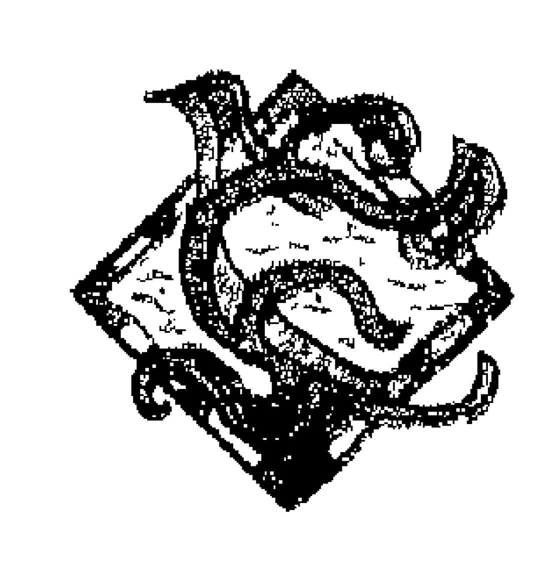
واجتمعَ أبناءُ المدينةِ حولَ قَبرِ نبيهم ووقف أحدُ الصبيان .

وقال هامسًا :

بأبـى أنتَ وأمـى يارسولَ اللهِ . . أىَّ جَهـدٍ بذلـتَ وأى مشقةٍ عَانيت ، وأى متاعبَ كابدتَ حتىَّ تؤدِى الأمانةَ وتبلِّغَ الرِسالةَ .

وقالَ صبىٌ آخر :

نعم . . دعـوتَ بالليلِ والنهـارِ ويشهدُ على ذلك بِطـاحُ مكةَ ودارُ الأرقـم ، دعوتَ النـاسَ جميعًـا الصبى والشابَ والشيـخَ ، الـرجلَ والمرأة ، العشيرةَ والقبيلـة ، العربـىَّ والحبشـىَّ ، الرومـىَّ والفارسىَّ .



وقالت فتاةٌ فى سن الرابعةِ عشرة باكية .

حملـتَ دعوةَ اللهِ إلى أَقصَـى مـاتحملُ قـدمـا إنسانٍ أو راحلتـهِ أسررتَ وأعلنـــتَ وجهـرتَ ، وَصَلَـــتْ كُتبُـك إلى كِسرى وقيصر والمقوقس ، تعرضت للنـاسِ لِتُبلِّغَهُمْ أو ليبلغُوا أو ليحملوكِ لتُبلغَ رسالة اللهِ . ودعوتَ للرشدِ بالكلمـةِ وحميتَ الدعوةَ بالجهادِ فى كلِّ الظروفِ ومِن جميع الأجواء . . كم تحملت ياسيدى يارسولَ اللهِ .

وبكى الجميعُ مِـن شدةِ التأثرِ . . فقالتْ فتـاةٌ سمراء بحرارة : لكأنى بِكَ وأنتَ تواجهُ الإعراضَ والتكذيبَ والاستهزاءَ والافتراءَ ،

المؤامرةَ بالسجن أو القتلَ أو النفيّ ، تَجهم [1] الأعداء . . إغراءَ السفهاء حتى كُسِرَتْ رباعيتُك [2] ودَمِيَ وجهُكَ الكريمُ . . لكن لاعجبَ فأمرُ اللهِ فى كل مراحل الرسالة يتتابعُ بالتبليغ .

﴿ياأيُها المُدَّثِر قُم فأنْذِر﴾ « ١ ـ ٢ من سورة المدثر »

﴿ وَأَنذِر عَشِيرتَكَ الأَقربَين ﴾ « ٢١٤ الشعراء »

﴿ قُلْ ياأهلَ الكتابِ تعالواْ إلى كَلِمةٍ سَوَاءٍ بَينَنَا وَبَينكُم أَلاَّ نَعبُدَ إلاَّ اللهَ وَلاَ نُشرِكَ بِهِ شَيئًا ﴾ « ٦٤ آل عمران »

﴿ قُل يـأيُّهَا النَّاسُ إنِى رَسُولُ اللهِ إليكُم جميعًا الذى له مُلكُ السمواتِ والأرضِ لا إِلَهَ إلاَّ هُو ﴾ . « ١٥٨ الأعراف »



وعندئذ وقفَ شابٌ فى السابعة عشر وقال معلقًا :

ولا عجبَ أن يكونَ الإصرارُ والمثابرةُ فى تبليغ دعوةِ الله فالرَّصَدُ[3] فى كل مكانٍ تسجل الأداء وتراقبُ التنفيذَ واللهُ من ورائِهم مُحيطٌ .

﴿ عَالِمُ الغيبِ فَلاَ يُظهِرُ على غَيبهِ أحدًا * إلاَّ من ارتَضَى مِن رَّسُولٍ فإنَّهُ يَسْلُكُ من بينِ يَدَيْهِ ومن خَلْفِهِ رَصَدًا [4] * لِيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالاتِ رَبِهِمْ وأَحَاطَ بما لَدِيهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شيءٍ عَدَدًا﴾ .

« ٢٦/ ٢٧/ ٢٨ الجن »

---

(١) التجهم : الوجه الكريه . (٢) أسنان فى الفك ، عليا وسُفلى .

(٣) الملائكة المكلفة بكتابة كل مايفعله الانسان فترصد كل كلمة وحركه .

(٤) فى رصد الحركات والسكنات (الملائكة) .

رقم الإيداع ٩٦/٢٢٢٨
I.S.B.N 977 - 09 - 0320 - 5

مطابع الشروق

القاهرة ١٦ شارع جواد حسني - هاتف ٣٩٣٤٥٧٨ - فاكس ٣٩٣٤٨١٤
بيروت ص ب ٨٠٦٤ - هاتف ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣


سيّد الخلق
الفتح المبين - حجّة الوداع